محاورة تهذيب العمران

الطبعة الأولى
١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

اسم العمل :	محاورة تهذيب العمران
اسم المؤلف:	يوسف سباعي بقاري
التدقيق اللغوي:	ريهام مصطفى
تصميم الغلاف:	محمد مجاهد
الإخراج الداخلي:	عمر أسامة
رقم الإيداع:	٢٠٢٤ / ٢٩٤٠٢
الترقيم الدولي:	٩٧٨-٦٣٣-٨٢٥٤-٠٨-٧

مسار للنشر و التوزيع

شارع ونس - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية - مصر
01020439639
massar.pub1@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، ورقيًا أو إلكترونيًا، سواء بشكل كامل أو جزئي أو عرضه مجانًا عبر أي وسيلة وبأي شكل من الأشكال من دون الحصول على تصريح خطي من دار مسار للنشر.

محاورة تهذيب العمران

يوسف سباعي بقاري

مَسَار
للنشر و التوزيع

إهداء

الأول :

إلى الدكتور **محمد آيت حمو**، إلى سيد تلين لحديثه العقول وتذهل لأصداء كلماته الأذهان. إلى من وجدت كلمة الأستاذ لتصفه، وصفة العبقري لتدل عليه. إلى من جعل في خلدي من الفلسفة فلسفتين، فلسفة عامة الخاصة، وفلسفة خاصة الخاصة التي لا يعزف منطقها إلا موسيقار مثله، ممن اجتمع في أنغامه شرح ابن رشد ومنطق أرسطو وشعر أفلاطون الشاب.

الثاني:

إلى السيدة **نجلاء سيف الشامسي**، إلى أم أدين لها وجيلا ممن صاحبني على درب القراءة منذ الصبا بكل قطرة حب نضمرها لكل كتاب. لعل حبي للغة العربية سابق عهدِ دَيني لها، إلا أنها جسمت صورة عشقي للغة الضاد بحلية الشغف وإيهاب المسابقة، وجعلته بعد أن كان نقطة في بئر، محيطا من الإرادة والتطلع، لا يعترف بالحدود ناهبا من المستحيل معناه وجوهره.

سفير المشروع الوطني للقراءة تحت ظل أدبكم.

شهادة أستاذ في حق طالب
بقلم الدكتور محمد أيت حمو

تعرفت على كاتب الرواية، يوسف سباعي بقاري، وهو طالب باحث ينصت إلى بعض محاضراتي الجامعية في الفلسفة، وقد اكتشفت بعد سنوات بأنه باحث في الفلسفة وعاشق لها وواعد فيها، حكيم «ما بقل وجهه وما طر شاربه»، حسب العبارة الجميلة التي وردت على لسان محيي الدين ابن عربي في كتابه العمدة الفتوحات المكية أثناء سعيه للقاء ابن رشد، يتنفس بخياشم الأدب الذي صادف هوى في نفسه، غزير العقل واسع العلم حسن الصياغة، جيد السبك، يولد المعاني الفلسفية، له شجاعة طلب الأقصى، وينفتح على تصورات فلسفية وأدبية، منفتحة وحيوية ومتجددة ومتمردة على النسق والنظام المغلق، مليئة بالسؤال والإثارة والمتعة والأنس والإبداع، ومفتوحة على إمكانات وفضاءات رحبة، وآفاق مختلفة. اغتنى لدى الكاتب الأدب بالعناصر والمعطيات الفلسفية، فجمع في روايته بين البيان الأسلوبي والأفكار الفلسفية في آن معا،

و«اجتمع فيه ما تفرق في غيره»، و«أخذ من كل فن طرف». لن أتردد في أن أقول فيه بعد أن درسته طيلة مرحلة الإجازة في الفلسفة ما قاله أبو العلاء المعري في ابن هانئ الأندلسي: "ما أشبهه برحى تطحن قرونا"!

مداعبة فلسفية للرواية

بقلم الدكتور محمد أيت حمو

لست متخصصا في الأدب الفلسفي، ولكنني أكن حبا أفلاطونيا له. وبعد سنوات طوال من الجفوة قيض أن تجمعني به خيوط القدر، وأن أحضن كلماته بمضامينها من جديد، بعد أن أهداني المؤلف هذا الكتاب لقراءته، وهو لم تؤثث به المكتبات بعد، فكانت هذه الكلمات بمثابة الصدى الذي تردد بداخلي حياله.

جلاء بطل الرواية المتشدد الذي اختار التطرف في بداية مشواره العمري، قبل أن يتحول إلى شاك، وييمم وجهه شطر «الإلحاد»! جلاء "كان متدينا بغلو"، يشرئب بأعناقه أن يصير كاملا وملاكا، بدل أن يكون طينا، إن شئنا استعارة هذا المفهوم من أبي العلاء المعري في صدره، عندما يقول:

"نسي الطين انه طين فصار تيها وعربدا"

لكنه قلب ظهر المجن للإسلام، وتحول من ولي للنور إلى ولي

للظلمات، ومن حليف للهدى إلى حليف للشيطان، ومن مسلم إلى «ملحد». "جلاء غير مسلم"(ص٤٢)، بعد أن شغلته الأسئلة الفلسفية الوجودية الكبرى والمبادئ القصوى للوجود، التي أصبح «يسبح» بها آناء الليل وأطراف النهار، من قبيل: "لكن كفاني انتحارا ولو كان فلسفيا، لا إيمان بما لا يرى بعد اليوم"، فأصبح العقل نقيض الإيمان الذي عليه المعول في الدين. "رأيت الإسلام لا تعقلا". (ص٤١). وكأني بجلاء يردد قول أبو العلاء المعري:

إثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له

وقوله:

كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيرا في صبحه والمساء

وقوله:

أما اليقين فلا يقين وإنما أقصى اجتهادي أن أظن وأحدسا

وقوله:

في اللاذقية ضجة ما بين أحمد والمسيح

هذا بناقوس يدق وذا بمئذنة يصيح

كل يعظم دينه ياليت شعري ما الصحيح

وقول ابن هانئ الأندلسي في مدح الخليفة:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وهكذا أصبح الإنسان في نظر جلاء غريبا لا يدرك منطلقه ولا منتهاه، "لا المرء يدرك ما هو ولا أين هو"، (ص. ١٣)

وهو ما يذكرنا ب "قصيدة الطلاسم لإيلياء أبو ماضي المليئة بالشك والحيرة واللاأدرية و«الإلحاد»، والتي مطلعها:

"جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت.

كيف جئت كيف أبصرت طريقي لست أدري.

ألهذا اللغز حل أم سيبقى أبديا.

أنا لا أذكر شيئا من حياتي الماضية لا اعرف شيئا من حياتي الآتية.

لي ذات غير أني لست أدري ماهية فمتى تعرف ذاتي كنه ذاتي

لست أدري.

إني جئت وأمضي وأنا لا أعلم أنا لغز وذهابي كمجيئي طلسم والذي اوجد هذا اللغز لغز مبهم لا تجادل ذا الحجا من قال إني لست أدري".

ولكن إذا كان للعقل حدود يقف عندها، ويعجز عن أن يتخطاها. أليس "القلب أقدر على الإبصار والتصديق"؟ وبعبارة باسكال: "للقلب أسبابه التي لا يدركها العقل"!

كثيرة هي المياه التي مرت تحت جسر التطرف الديني والتطرف المادي لجلاء. فهذا البطل الذي تسربل بجبة التطرف الديني وشاء التشدد له سبيلا، التقى بصديقته القديمة رغد في كلية الأدب الإنجليزي، بعد أن درست معه في الثانوية. وبما أن رغد كانت ملحدة، فقد تحاشى جلاء نسج أية علاقة محرمة معها. بيد أن رغد أبت إلا أن تستدرجه وتتقرب إليه من خلال التعبير له عن رغبتها في معرفة الإسلام، ولكن المفاجأة كانت كبيرة لها عندما أسر لها بأنه هو نفسه قد فسدت عقيدته وخالجته الشكوك وأصبح شاكا

في دينه! ويحضرني هنا الحديث النبوي: "إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه" لأن الطبيعة ضد التطبع.

وتشاء الأقدار أن يتجاذب جلاء أطراف الحديث مع أخته الصغيرة رانيا في إحدى الأيام حول مقتل والديهما (الأب والأم). وإذا كانت رانيا لا تعلم من له اليد في قتل والديهما، فإن جلاء تنتابه الظنون والغالب والراجح بأن أخوهما البكر ضياء هو صاحب هذه الفعلة الشنيعة، ولا أحد غيره.

ولذلك سيرجع جلاء من جديد إلى رغد، ويعتبر بأن أخاه الأكبر ضياء هو الذي اقترف جريمة قتل والديه، وقد أرسلها لملاقاته حتى تدله عليه.

وهنا يلتقي جلاء بأخيه ضياء ويحتدم النزاع بينهما في القلب النابض لمقر عمل ضياء الذي يشغل المدير التنفيذي لإحدى دور النشر، مما جعلهما يفران من حراس الأمن ويطلقان ساقيهما للريح لا يلويان على شيء، حتى وجدا أنفسهما بمعية رغد في سفح إحدى الجبال.

وهنا يحمل ضياء كتابا سحريا، ويخبرهم بأنه كتاب عجيب وخلاب، يطوي لهم الزمان، ويتيح لهم إمكانية لقاء الفلاسفة في قمة نضجهم الفكري، كما يخبرهم أيضا عن مفتاح الدماء المشغل للكتاب بطريقة روحية. وهنا سينصب ضياء نفسه ربانا وقائدا للرحلة الزمكانية، وسيتغذى مفتاح الدماء على طاقة حياته، (بينما لم يكن جلاء ورغد يعلما بان طاقة الحياة تستنفذ وتستهلك من قبل مفتاح دماء قائد الرحلة، وكانا يجهلان بأن والدي جلاء قد ماتا بنفس الطريقة). وهنا سيسافرون جميعا إلى الصين القديمة، وسيجدون أنفسهم يتزيون بالزي الصيني ويتحدثون بلسانهم، لكنهم مع ذلك كانوا يتضورون جوعا باعتبارهم غرباء. وبدأ يلوح في الأفق رجل صيني جاء ليخلصهم، منبها إلى مسألة كونهم غرباء. وبدؤوا بتفرسون في وجوه بعضهم البعض ليتضح لهم بأن هذا الرجل المنقذ لم يكن سوى الفيلسوف كونفوشيوس! وبعد أن عقدوا المجالس والمناظرات الفلسفية، اكتشفوا بأنهم ليسوا في بلاد الصين القديمة كما يعتقدون، وإنما في غرفة تتغير نحلتها وحالها تبعا لأفكار المسافرين إليها حيث لا إملاق ولا حاجيات جسمية ولا

متطلبات مادية. وهكذا يستمر لقاءهم بالعديد من الفلاسفة كابن خلدون وابن طفيل ونيتشه، الذين تعد نصوصهم من النصوص التأسيسية أو المؤسسة التي لا يمكن أن تفهمها القراءات الضيقة لأنها ترتقي بالأفهام والعقول والأذواق إلى أعلى عليين، فيشرعون في الحديث في حلقة مستديرة عن مطلب الحقيقة الذي هو الشغل الشاغل لهم من حيث المشاكل التي طرحت للنقاش، أو من حيث الأفكار التي تم تداولها، ممارسين المعرفة النقدية بكل طيبة خاطر، ودون أن يحسوا بالحرج، بسبب العقائد الدينية أو يخشوا من النتائج والانعكاسات الإيديولوجية لعملهم، كما أنهم كانوا يواجهون قصدا الصراعات والتوترات الناتجة عن المجابهة اليومية بين العلوم العقلية، وأوامر الدين، عبر طرح المواضيع الفلسفية المعقدة كالوجود الإنساني والعدمية والعبثية والعمران البشري والغرور الإنساني، وغيرها من المواضيع التي لا تخلو من المخاطرة الفكرية والمغامرة المحمودة والقلق الوجودي والتجربة الروحية الخصبة، طارحين أسئلة وجودية خطيرة على التراث الديني المهيمن، تستشكل سؤال الإنسان، بالعقل النقاد، المتحرر

من العقلية الدوغمائية الضيقة، والمؤسس للتيار الإنساني الأدبي أو التيار الإنسي العقلاني الواعد والهادف أو النزعة الإنسانية التي هي رهينة بالنزعة العقلانية أو الجرأة العقلية، من خلال مقولة التوحيدي المكثفة والحديثة والمعاصرة عندما قال وكرر القول: «إن الإنسان أشكل عليه الإنسان»." و"تعني عبارة التوحيدي أن الإنسان يمثل مشكلة بالنسبة للإنسان ولغزا مجهولا، فالإنسان لا يعرف نفسه كما ينبغي، وكما يتوهم غالبا". فهو بحاجة إلى معرفة نفسه بنفسه. "بمعنى أن الإنسان يتحمل كل مسؤوليته بصفته كائنا عاقلا، ويلتزم بكل مرونته وطاقته الذهنية بصفته شخصا مستقلا ذاتيا يفكر بنفسه ويتكئ على ذاته". كما أنهم يتداولون في المفاهيم الفلسفية، وخاصة النيتشوية منها من قبيل: العود الأبدي، موت الإله، وهلم جرا. وهنا نشير إلى أن كل فكرة لا تقبلها وتستسيغها الغرفة، تؤذي قائد الرحلة وتضره وتعجل بوفاته. وفي الأخير يلتقون بابن مسكويه الذي سبق لضياء أن التقاه في رحلة سابقة تقلد زمام قيادتها أبواه. وهنا يسعى ابن مسكويه جاهدا للتكفير عن ذنبه عندما عجز عن حماية والدي جلاء وضياء في الرحلة

السابقة، ويأبى إلا أن يضحي بنفسه لإنقاذ الثلاثة معا. فيعود الجميع إلى عالمه الأصلي ما عدا ابن مسكويه الذي كان هو «كبش فداء» الرحلة الزمكانية تضحية بنفسه ليعود كل من الفلاسفة والثلاثة، (جلاء وضياء ورغد)، إلى عوالمهم الأصلية.

شخصيا أعتبر هذه الرواية الفلسفية/الأدبية من الكتابات «الحرة» و«الشذرية» أو «المقطعية» و«الفوضوية» و«المتسكعة» بالمعنى الإيجابي الأركوني التي تسلك مسالك شتى وتمشي في دروب مختلفة وجمة، وبالتالي تقبل قراءات متكثرة حرة إلى درجة التشرد والتسكع في كل الاتجاهات، وهذه ليست رذيلة ومثلبة، وإنما فضيلة ومنقبة. فهي دعوة إلى مصالحة الإنسان لنفسه عمليا ليعيش في وئام وانسجام وتناغم سعيد بعيدا عن الانفصام. وهذه الدعوة تعني أن هذه الرواية تند عن القراءات الضيقة لأنها ترتقي بالأفهام والعقول والأذواق والشطحات والخيال إلى درجات قصوى، تكاد أن تذكرنا بالخيال العربي الذي بلغ قمته وأوجهه لدى «فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة» في رسالة الغفران أبو حيان التوحيدي الذي لم يسلم من التشكيك في عقيدته، عندما قيل: "زنادقة الإسلام

ثلاثة: المعري وأبو حيان التوحيدي وابن الراوندي. وشرهم على الإسلام التوحيدي لأنهما صرحا وهو مجمجم لم يصرح"

كما اعتقد بأن المسالة الإنسانية تعتبر محورية في هذه الرواية المهمومة بالإنسان ومشاكله، وتشكل الثابت الذي عليه المتحول من الفلسفة الأدبية للباحث ومحور تساؤله وأساس تفلسفه. فقد أبلى بلاء حسنا في الاعتراف برسالة الإنسان، وكانت له صولات وجولات صادقة في التأكيد عليها، لدرجة المخاطرة والمغامرة، "فالفكر الذي لا يمشي على حافة الخطر لا معنى له، فالفكر والخطر صنوان". فقد انتصر المؤلف للإنسان، ووقف من قضيته موقفا مناصرا بصفته نقطة البداية والنهاية لكل فلسفة. وهكذا فتحت الرواية النوافذ على العلاقة بين الدين والفلسفة، واحتوت على مواقف فلسفية لا تخلو من الجرأة والنقد والحداثة، زاوجت في تناغم عقلي بديع بين الدين والعلوم العقلية دون أي إحراج أو إقصاء أو نبذ أو استبعاد. فكان الفيلسوف الأديب متمثلا لعلوم الأنا وعلوم الآخر، ينظر بعينين ويمتح من البئرين: بئر العقل وبئر النقل، بدل الإساءة إلى أحدهما أو الإضرار به وإفساده. ويحضرني

هنا بعض ما قاله أبو العلاء المعري في ديوانه اللزوميات، في الشعر، ورسالة الغفران في النثر:

غدوت مريض العقل والدين فألقني لتسمع أنباء الأمور الصحائح

بني زمني هل تعلمون سرائرا علمت، ولكني بها غير بائح

سريتم على غي فهلا اهتديتم بما خبرتكم صافيات القرائح!

وصاح بكم داعي الضلال، فمالكم أجبتم على ما خيلت كل جائح؟!

وليس من المبالغة في شيء، قولنا هنا: إن هذه الرواية تذكرنا بمرحلة أيام «العز والصولة»، وجريان نهر الإبداع الأدبي الفلسفي العربي، حيث شهدت مجالس عامة وخاصة لا تخلو من الإثارة في القصور والساحات العامة والمدارس فضلا عن المساجد والبيوت، فانتعشت الحلقات والنوادي الأدبية، والمناظرات الرائعة بين المشارب المختلفة في الفكر والعلم والأدب بين الأدباء الفلاسفة، واغتنى الفضاء الثقافي بالتسامح والتناظر والتحاور، وتم التشاغل

بالأسئلة القلقة الإنسانية الكونية، وبالسمين الثمين دون الغث الخسيس والحقير السخيف.

ويحضرني هنا قول الباحث الجزائري محمد أركون: "وبانتشار الأدب الفلسفي التحم منظور الكون الإغريقي بإدراك «عجائب الخلق» كما يقدمها القرآن".

ويرى الفيلسوف المغربي بنسالم حميش أنه من الاستحالة بمكان استئناف الإبداع الفلسفي العربي الإسلامي الآن وإلى هنا دون العودة إلى الفلسفة الأدبية و«اللانسقية» و«المنفتحة» و«المتشظية» المفتوحة على معان جمة متضمنة فيها وموجودة بالقوة، بحيث يعز ويمكن لأي تفسير أو تأويل أن يغلقها أو يستنفذها. "لعل أحد شروط استئناف الاهتمام بالفلسفة العربية «الكلاسيكية» يكمن في توسيع دائرتها المرجعية إلى الفلسفة الأدبية التي من أقطابها التوحيدي و«أستاذه» الجاحظ وزميله مسكويه، (محاوره في «الهوامل والشوامل»(، وسواهم من أمثال المعري وابن عربي وابن حزم. إن مما يثير العجب، حقا، ذلك التهميش المشوب بالاستخفاف الذي يخص به مؤرخوا الفلسفة العربية التراث

الأدبي عموما والفلسفة الأدبية خاصة، هذا في حين أن هذه الفلسفة مع أولئك الأعلام، وعلى رأسهم التوحيدي، تستحق مكانتها بين الفلسفات الوجودية واللانسقية، وذلك لأنها - عدا الإلهيات التي اعتبرتها معضلة عويصة - قد اجتهدت، هي بدورها، ووفقت في تسليط الفكر على المخلوقات ومقالاتهم، سالكة في هذا طريقا تساؤليا منفتحا، ربطت فيه بكل حزم وأصالة الفكر باللغة، والقول بالبلاغة، كما أنها استجابت - خلافا للفلسفة العربية المشائية - لأهم مكون في نمط الإبداع الفكري العربي المتجلي في «المقطعية» أو «الشذرية»، التي يجسدها البيت في الشعر، والآية في القرآن، والحديث في الخطاب النبوي، والفتوى في الفقه، والشطحة في التصوف، والحكمة والمقابسة في الفلسفة، وأخيرا الخط والفسيفساء في الفن والمعمار". ومن هنا ضرورة إضافة البعد الأدبي إلى البعد الفلسفي بدراسة الآداب الكلاسيكية القديمة، وتقليب الفلسفة الأدبية المرنة على كافة وجوهها الممكنة، إذ قد «يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر»! فالفلسفة الأدبية أسدت خدمة جليلة إلى الفلسفة لأنها أنزلت المفاهيم الفلسفية المعقدة من

سمائها التجريدية العالية وبرجها العاجي وأذاعتها بين الجمهور الذي تند أفهامه عن الفلسفة النسقية السائدة في الحلقات الضيقة، "بمعنى آخر، فإن هذه الحركة المزدوجة التي كانت تجعل الفلسفة أدبا والأدب فلسفة، راحت تؤدي إلى تشكيل ذوق معين وفضول معرفي وأخلاق محددة تماما، وراحت هذه الأشياء الثلاثة تترسخ، قليلا أو كثيرا، في الثقافة العربية التالية". فما أحوجنا اليوم إلى الاستعاضة عن الفلسفة النسقية المشائية بالفلسفة الأدبية المرنة المنسابة كالماء الزلال التي تستحق اليوم – أكثر من أي وقت مضى – أن يعاد لها الاعتبار لاستثمارها وتوظيفها وتمثلها والغوص في أعماقها ومتابعة «تشظيها» و«حريتها» و«شرودها» و«تسكعها»، وقراءتها بعيون «زرقاء اليمامة»، لتحقيق حياة أفضل وأسعد، وأفق مشرق وأجمل، بعد أن تم إغفال الجانب الإنساني والمعاني الإنسانية في الإنسان المشيء والمغترب في الوعاء الزمني للعقلانية الأداتية والتقنية التي ينبغي إعادة النظر فيها وتصحيح مسارها، من أجل فتح آفاق جديدة للتفكير الإنساني، وانتشال الإنسان من الخطر والأفول الذي أصبح يهدده كما تنتشل الشعرة من العجين.

وبعبارة أخرى: إن العالم العربي الإسلامي في أمس الحاجة إلى مد جسور الاتصال والتواصل بين التخصصات والصناعات بتعبير القدماء، بعيدا عن المعنى الاختصاصي الحديث الضيق، وفي مقدمتها الفلسفة والأدب والدين، وخاصة الثيولوجيا حتى نحارب الانزواء والانعزال في التخصص الضيق الواحد. "فالباحث المعاصر يعزل نفسه غالبا ضمن اختصاصه الضيق ويصبح «خبيرا» مثله في ذلك مثل طبيب الأرياف الذي يكتفي باستقبال المرضى في عيادته دون أن يتدخل أبدا في حياة القرية التي يمارس فيها مهنته!" وهذا الانعزال في التخصص الضيق من طرف الباحثين المعاصرين الذين يضيعون في التفاصيل وتفاصيل التفاصيل، مثلبة ولا يخلو من نتائج سلبية وخطيرة جدا، "إن تشظي العقل والمعارف التي أنتجها منذ القرن السادس عشر، قد حصل أيضا في النظام التعليمي والجامعي الذي أدخل إلى البلدان الإسلامية والعربية بعد الاستقلال خصوصا، هكذا نجد مثلا أن قسم اللغة العربية في الجامعة لا يخصص أي مكان «للفلسفة»، ونجد أن الفلسفة بدورها لا تترك أي مجال لتسرب الأدب ولا

حتى التيولوجيا إلى رحابها وقاعاتها. أما هذه الأخيرة - أقصد كليات الشريعة - فهي معقل لمعارف ومزاعم العقل «الإسلامي» الأكثر دوغمائية، كما كان الأصوليون قد حددوه وعرفوه بشكل خاص". ويضيف محمد أركون لاحقا: "ولهذا السبب نلاحظ أن الفلسفة والفكر المعتزلي لا يزالان مرفوضين في كليات الشريعة"، ويضيف كذلك: "استخدمت الفلسفة أطر الأدب وسيلة للوصول إلى جمهور أوسع من جمهور «المتخصصين»، وقد تم هذا التطور بفضل (أبي حيان التوحيدي) (توفي حوالي ١٠٢٣)، «فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة»، و(مسكويه) (توفي ١٠٣٠)، الفيلسوف والمؤرخ، و(أبي الحسن العامري).توفي ١٩٩٢

لائحة المصادر والمراجع:

- محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، منشورات مركز الإنماء القومي، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٦.

- محمد أركون، الفكر العربي، مع مقدمة للمؤلف خاصة بالطبعة العربية، ترجمة عادل العوا، منشورات عويدات، بيروت - باريس، الطبعة الثالثة ١٩٨٥.

- محمد أركون، الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد، ترجمة وتعليق هاشم صالح، دار الساقي، الطبعة الأولى ١٩٩٠.

- محمد أركون، نزعة الأنسنة في الفكر العربي: جيل مسكويه والتوحيدي، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، الطبعة الأولى ١٩٩٧.

- محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني: كيف نفهم الإسلام اليوم؟ ترجمة وتعليق هاشم صالح، دار الطليعة - بيروت، الطبعة الأولى نيسان (ابريل)١٩٩٨.

– محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي، ترجمة وتعليق هاشم صالح، دار الساقي، الطبعة الأولى ١٩٩٩.

– بنسالم حميش، "تجربة الوجود والكتابة عند التوحيدي"، مجلة فصول، العدد الرابع عشر - العدد الثالث، خريف ١٩٩٥. – أنور لوقا، "أبو حيان التوحيدي والتعامل مع الحداثة"، ضمن مجلة فصول، الجزء الثاني، (أبو حيان التوحيدي)،العدد الرابع عشر، شتاء ١٩٩٦.

الدكتور محمد أيت حمو

.أستاذ الفلسفة بشعبة الفلسفة، ظهر المهراز بفاس

منسق ماستر: الفلسفة والعلوم في العصر الوسيط

له عدة كتب ومقالات فلسفية جماعية وفردية

حول دراسة الكتاب :

من باب الأمانة العلمية، الإشارة إلى أن الأستاذ محمد أيت حمو قد فاجأني بهذه الدراسة، حينما قدمت له المحاورة الروائية لأول مرة قصد الاطلاع عليها، وهي مازالت في طور التنقيح ولم تنشر بعد. هي قراءة تحليلية نقدية أعتز بها، ولها ما لها من قدر عندي لا تكفيه مصطلحات التقدير ولا أوصاف الاعتزاز. إنما هذا من الرعاية الأبوية واللطف الذي لا جزاء له، وما شئت تضمين دراسته التحليلية لهذه الرواية إلا لدرايتي بكونها عينا فلسفية بحتة، تضع الكتاب في إطاره ونوعه، فيشهد له شاهد من أهله ويُقعِّد لركائزه وأسسه.

تدشين الكتاب خلال آخر نسمات يستنشقها خارج المكاتب، هو تشريف لي وللكتاب على حد سواء. واحتواؤه لمداد الدكتور محمد آيت حمو ونسل قلمه، تعريف له بأحد أعلى موارد كلماته ومنابع سطوره وأصول أفكاره وإرهاصاته.

وقد شئت أن أتقاسمها مع كل من تداعب أنامله صفحات هذا الكتاب، فهي مفتاح له وباب أشسع لفهم أعمق واستيعاب أدق وتأطير أكمل.

تدبير التفكير بين آصرة التعبد وخواطر المناجاة

ـ ٩ أكتوبر ٢٠٢٢

سار جلاء و انطلق في كتابة مذكراته، و تاجُ عنونتها قولٌ لطالما سرى في دمه و اندمج في غيابات فكره : "أينما كان هنالك نور ـ هنالك دوما ظلال"، بدا قلمه حينها حديث عهد صريح بمداعبة أوراق مذكرته، و ولو كان بليغ الفكر قويم الرأي فصيح المداد، إلا أن مسعاه بعُدَ بما كفى ليتوارى عن قابليته و قدرته، فما كانت أوائل كلماته إلا فسادَ عِرضٍ و تبلدَ رأي، حجَبه فكره فَعرَّت عنه لغته في كامل تبرُّجه .

يباشر جلاء بمحاولةٍ بدت على إيهاب فرصةٍ أخيرة، يضعُ قلمه بثبات، و يرجو أن في جوهر جفاف مداده بعضَ اللين و الرحمة و الرقة. فما أسعدَ كلمة، و لا أغبَطَ جملة بمصير مرغوبٍ و لا بقدر محمود. و إنما آتاها صفا صفا، ما تصف إحداها سقرَ إلا و التي

بعدها ناظرة السعير، و ما كان الحزن عنوانَ أحدها إلا و التبرم حكاية تاليتها، لا تفاؤلَ و لا سعادة، فكرٌ عديم الإحساسِ مجرَّد الضمير .

وما كان إنصافا قويما لومه على ما هو عليه، لا بد أن وراء كل حدث مُحدث، و بين كل موت و حياةٍ حاصدَ أرواح. إلا أنه لم يبدُ كائنا زرعت روحه لِتُحصد، لا يعلو محياه إلا النفور و لا يَسِمه إلا الاستعلاء، و مهما كان ما قد قاده لما هو عليه، فلم يكن حدثا عاديا، هذا محتمل، بل هذا مؤكد...

ما لم تعجز كل عينٍ واكَبتهُ مسيرة حياته، سواء أكان ذلك ليوم أو لشهر، فلا يخلص الناظر إلا لمُستحالٍ معلومٍ و نتيجةٍ جزمية، أنه كان متدينا بِغلو، و لو أن نطفته من أسرة تراعي التوبة بقدر ما تراعي المناجاة و الإحسان. فكانت فرائضه أوجَبَ له عند الرخص، و حق نفسه أهونَ من واجبِ تعبُّده. و ما كان القرآن إلا أقرب له من أي حرف خُطِّط و من كل مخطوط كُتِب، و ما هو على ذلك بملام، ما دام في حضرة بديعٍ إلهي عجز عنه أي ذي ريشة و خليل قلم.

أفرط في تدينه و غار في مُشادَّتِه و غلوه، و كان بذلك القبضُ على جمرةٍ من نار، أهونَ بكثير مما أقحَم ضُعف نفسه و عجزها فيه. ما علِم حق العلم أنه إنسان فاعتدَّ بذاته، و بات بعدما أمسى آدميا مستخلفا في الأرض، ملاكا لا يعرف إلا معاني الخضوع و التعبد و الخنوع، ما علِم حق العلم أن من خلق من نور لا يستوي مع من خلق من تراب، أن من قُذفت فيه معاني التعبد و الامتثال ليس كمن اختار حمل الرسالة فكان بذلك الظلومَ الجَهول، أن من خلق للعبادة ما كان كمن أنشئ للعصيان و التوبة. جهلَ ذلك أم تناساهُ ذاك لا يهم، الأهمُّ إبلاغا و الأبلغ للختام قوله ﷺ عن أَبي هريرة : " إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وشيء مِنَ الدُّلْجَةِ ". قد شادَّ جلاء الدينَ، و قد غلبه .

بعد سنين طوال من ملائكية الطاعة، حلت به مصيبة المعصية، فضاعت منه بوادرُ الإحسان حتى انسَفَلت إلى الإيمان، و غادرته ملكات الإيمان حتى ما عادت تعدو ركائز الإسلام، و هو ضالٌّ على حالِ الضلال، حتى ما عاد يحسب نفسَه من مُبايعي الإسلام

و لا من أهله .

عودةً إلى بدايةِ المشهد، و بعدما سطر جلاء أوائل كلماته، سار قلمه في طلب جودِ الأنامل و كرمها للمزيد، و ما كان له أن يرجو نهاية لمدادِهِ خيراً من مناجاة إنسانية إلهية، ليجد نفسه المُكرهة تاليا، موضوع تجاوزٍ ظالم و تبرم معلوم، أُلزِم بعقد ملعونٍ أرَّخ بحبره على إثره و في موازاة سبيله قولَ صاحبه :

ما اختلف يومي عن بارحته في أَذَرِّ أمرٍ عدى تاريخه، مذكراتي هاته، ومُسطراتي عليه هذه، ما نافرت ما كنت لأسير في طلب كتابته البارحة و لا قبلها في شيء، و إنما ما أنا تحت رجائه، أن يكون لِغَدي معنى و لِبَارحتي اشتياق. بعدما أدبرت عن إرادة الماورائية و الطمع في مواطِن إزهارِها، ما عدت إلا طبلا من الطبول، فشابهتها بحلتها و أحوالها، قلوبُها خاوية و صرخاتها في السماء. ما انقطع إدراكي للوجود و ما فقدت رابط مناجاتي بخالقه، إنما برحت موقعي و اختلفت من موضعي من ساجدٍ تحت عرش الإله إلى مُدينٍ إياه و مصدر أحكام، و لو فصل بين ذواتنا حاجز العابد و المعبود، و لو فارق بين مقاماتنا منطق الموجدِ و الموجود، و لو كنت ذرة من

جناح بعوضة أو ما دونها، فلأكونن الهواء الذي تطفو به و تسبح في نسماته. ثمة تحت وطأة الوجودِ ما يدعو للإلحاد أكثر مما يدعو للإيمان، تضيع ذاتك و صفاتُك بين أحوالِ و انصرافات عبادك. تأرجح الخير و الشر، تراوح النور و الظلام، وجود معاني الرحمة و القسوة و ضياع قَسمات العصبية و الوحدة، كل ما على الكون لا يوحي بالنظام، تتغذى الحيوانات على بعضها، يغتال البشر بعضهم و تطغى الطبيعة على نفسها، ما من وِحدة أبدا على مقياس الزمكان، و ولو كانت هنالك ذرة نظام، لكانت استمرارية القهرِ و المعاناة.

وهبت الإسلام أكثر مما قد يهبه أي امرئ لنفسه، فما عساه قد تغير، ما عساه من الأحوال قد تبدل، لا زال طريح قبرهِ البارحةَ حبيبَ ترابه، و ما يزال ناهبُ الأمس سارق اليوم و لص غده، فأي رحمة إلهية هي هاته، و أي مستحقات رجوتها مقابل بؤس عبادتي هذه.

رأيتك معبودا لا يناقش، وأحيط خبرا بخطر ما أنا زاعمه، بحَدِّ تحدِّي ما أنا قائله، أنه بشكل ما قفزةٌ من نعيم إلى جحيم، و من رضى إلى لعنة، لكن عسى أن تكون لي شفاعةً الإنسانية و عذرُ

النقص و الذات الفانية، فكلما أقدمت على تحدٍّ بخطوة، أرجعتني صورة قدسيتك مهرولا.

إلهي مهما دققت لفظي و صوبت كلماتي ما كانت أهلا لأن تسدد و تقارب، إني حائر أمر ضائع سبيل، إني واقعُ تبرم خشيتين، خشيتك و خشيةُ ضياعِ جسدٍ و حياة. أَعساي أظل على عهدي بك أنك المعبود، أم أنصرفَ إلى عبادة ذاتي و تعديل صفاتي ؟ ما لهذا الكون لا يحدِّثني عنك بصغيرة و لا كبيرة، رب أوجدتني فأوجِد قلبي إليك، نزغ الضياع فؤادي فهل لك من مآل، حدثني عنك بأي كائن، أينما آل به مآلي و أينما كان...

مذكراتي الأولى ـ خشية و انفصام

ابتغى جلاء تدوين مذكراته ساعيا للتمرد، فوقع في خواتمها عبدَ التردد أسير التوبة. ما رجا انسلاخه عن دينه إلا و أيقَن فداحة خطئه، ليظل بذلك على حاله حشرةً على أرجوحة، فلا هو مدرك أينما يغدو و لا دواره و طنينه يكاد يخبو. قد تبدو الإنسانية فحلة البساطة مكشوفة الوضوح، إلا أنها دوما سجينة عواملَ متناهيةِ التعقيد، ما تنبلج فِداها لمحةُ حسنٍ إلا و تتلوها تباعا نظرات استعلاء و احتقار، ما الإنسان يوما بمقابلة محياها مستريح. لا المرء يدرك ما هو و لا أين هو، و ما كان ليحسن التصرف و لو أدرك، هو على فرط ذكائه و تفرده بعقله لا محدودُ الغباء، و على تنوع ناظريه و منظوره، دوما ما يعمى عن جبروت الخالق بما أبدعه من مخلوق. مناصفة و موازاةً لحال الإنسان، لزَمَ أن تناله رحمة الإيمان، لعل عقله يعجز عن التفكير بما يخفى، و لعل عينيه تعجزان عن رؤية ما لا يرى، لكن القلب أقدر على الإبصار و التصديق، و قيامه على مبدأ التسليم، وحده ما أوجب لجلاء أن يظل على دينه فلا يضِل

عنه، و وحده ما رافق معصية تمرده باستغفار الاعتذار، و وحده ما منعه عن انجذاب نفسه و تطاول شهوته و ذاته. لعله لو كان كفؤا بما يكفي لإدراك ذلك من قبل، لنجا من مُشادَّة دينه و لما آل لنفس عاقبة حالِه و أمره.رغم ما وسعَ قلمه من التمرد و التطاول و العصيان، إلا أن كل ما جال بخاطره و خطا بباله فكرة وفاته على حاله، وفاته وليا للظلمات عدوا للنور، حليفا لنفسه محاربا لروحه، عبدا لنزواته متمردا بهِبته على واهِبه.

تحول بهذا الثقل من اللهم بك وضعت جنبي و بك أرفعه إلى "الماذا لو". كان عبئا يُخشى عليهِ من وزره، عبئا ما كان لثقله أن يحتويه شاب بمثل سنِّه، ماذا لو مت على غير الإسلام، ماذا لو حصدت روحي فتحصد معها ما سلفها و أمضاها تعبدا و إخلاصا و رباطا و زهدا، ماذا لو خلصت إلى مطاف إبليس و فرعون و النمرود و غيرهم ممن طردوا من رحمته، ماذا لو قارعت خاتمتي خواتمهم و لو ما طغيت طغيانهم و لا ادعيت ادعاءهم، كلها أسئلة أفحمته و خثرت في عروقه دمه، ذاك ثمن العصيان، لا...بل تلك هي ضريبة النسيان .

٢٠ أكتوبر ٢٠٢٢ ـ في صدفة لقاء

المذكرة الثانية : الخوف هو الحرية، القهر هو التحرير و التناقض هو الحقيقة، هاته حقائق هذا العالم و سأستسلم لها جميعا...

على فراشه الفندقي، قابل جلاء يومه مغمض العينين، مجعد الجفنتين و رؤيته الضبابية تحجب بشكل واضح كل ما حوله. ليلته الماضية قد كانت إسراء لجهنم ومعراجا للجحيم، جالها وذاق من لهيبها على حدأة بظهر مستعِر، عاش الأمرين على وقع ليلة باتها على غير ذمة معبوده مستوسدا جناح قرينه. قام مترنحا فاستحال لحمام مجاور لغرفته المرتبة، داعب وجهه بمياه الصباح الباردة، فانطلق متوضئا بإسباغ قبل أن يدرك، لربما وافق عقله تمرده وجهله، إلا أنه لا ذاته النفسية و لا ذاكرته العضلية تأبيان الخضوع لمرارة موضع نفسه المستحدث.

جلس جلاء على منضدة فراشه حاملا مذكراته، يتأمل ما خططه بإمعان فلا يجد فيه قرار رأي و لا سداد وجهة، كل محتواه المكتوب،

كان مجرد هلوسات نرجسية و إمعانات إبليسية، قد قضت ببوحها طبيعته الأنانية، لا عقل فيها و لا صواب و ما كانت إلا قفزة تحول صبيانية. أوجس في نفسه أن خروجه من عش أدفأه منذ طراوة عوده و على نعومة أظافره سيدع بينه و بين أي ريح صرصر عاتية، لا قرارة فيها و استحال أن تكون منها أي سكينة. عاود الحديث لنفسه مثنى و ثلاث و رباع، فما وجد بُدًّا من رجوعه لأصل كيانه، هو دون الإسلام كالزهرة الذابلة، قد أحرمت من قطرة الحياة. عاهد نفسه بقولٍ حق، فكان جلاءُ المسلم .

يعود الفتى التائه لعادته القديمة، مغتسلا تائبا متضرعا من لا رحمة إلا رحمته و لا مغفرة إلا غفرانه و سِعته، صاحب نعمه و هباته عليه آذن له أن يسجد تحت عرشه من جديد، و لو اهتز العرش لما فعل و زُعزعَ حملته بما أقدم، فقذف في نفسه قرارةً و إيجاسا أن يقول : رب أشهد أنك الله لا إله إلا أنت، لا نظير لذاتك و لا ندَّ لكمال صفاتك، أشهد أن نبيك محمدا ﷺ عبدك و رسولك، و إني و لو برحت رحابة لطفك و اتساع عزتك، فما ذلك مني و إنما من قريني، و ما تُسالمُ المسلِمَ نفسه في عصيانك و هجرِ جِوارِك، فاعف

عني و أنظرني إلى يوم أنت عالمه، يوما يغلب فيه يقيني إيماني، و يوافق عقلي فؤادي في رجائه و اعتقاده.

ما قارعه حينها كائن في سعادته و اغتباطه، فتجديد العهد بالله، حبٌّ لا يرفض و اعتراف لا يرد، توَقِّعه عقود الأرض و بنود السماء، و ما تكاد تقضي فيه صحف التراب حتى تكتب بحروفِ التجاوز و الغفران على بطونِ السحاب. العملة الأسوء من كل ما سبق، بقاء جلاء على عهده بجهله، فطالما غاص في الغيبيات و سبح في مساءلة الميتافيزيقيات حتى أغفل عن ذرية عقله و مجهريته أمام مِكشفِ الحياة، ذاك ما أعرَضَه عن ركيزة الإيمان من دينِه و الاحتساب فيه، فنسي مغزى الوجود، و ما علِم مكان الغيب من تحديد قدرِ التسليم و الإيمان، فلو علم كل بمآل جنته أو ناره، و استرسَلَ اليسرُ إذناً بإبصار ما اختُصَّ به البصر الحديد، لما كان من حياة الاختبار طائل و لما كان فيها من مغزى، و لما كان مفهوم الدينِ واتباعه موجودا أساسا و أصلا، فلا غرض من امتحان سُربت أسئلته عن يقين، و علمت حقانيته و بدت آثاره، فما هذا إلا طمسٌ لجزئية الإيمان من الإسلام، فما أصدق المؤمن بالغيب عن جهل مقرونٍ بثقة، و ما

أجبن عابد كيانٍ أعلى خشيَة تمكنه و سوء هول جبروته و قدرته.

بعد زمن من لمحاتِ الفرح وتيه السرور، يلج جلاء كلية الأدب الإنجليزي، مفعم الحيوية، واسع الثغر شاغر الفاهِ أثرا من سعادته الكلية، إلى أن انقطعت ابتساماته بعد هنيهة، بعدما التقطت أنفاسَه من رآها، فتاة ما كان حديث العهد بها، صافحت عينه عينها، فشاح بنظره لأبعد ما قد تصله مواطئها و تقدِرُه.

على نهج نحسه و سوء طالعه، ما كاد يحتفي بِتحاشيه المظنون به ناجحا، حتى نزَل به صوتُها منزِل الحميمِ على مسامعه و آذانه

فقالت بألينَ صوتٍ عرفه تاريخ الأنوثة و احتفى به سجِلُّ الرِّقة والليونة :

رغد : باعٌ من الزمنِ لا يخفى قد فارقَ بين مجلسنا يا جلاء، أليس كذلك ؟ و مرحبا على سبيل كلام ما كان لَكَ بحسبان...! "قالت ذلك بابتسامة خافتة، وسِعتها الثقةً بقدر ما أوحت بالخجل"

جلاء : يبدو كذلك فعلا، لا شك أنه كان وقتا هادئا حقا "همَّ بعدها بالإعراض عنها من جديد"

رغد : مفاجئ حقا قدر وفائك لشرنقتك أيتها الفراشة الخجولة، آهٍ آهٍ يا لها من محظوظة...

جلاء : إليك عني يا رغد، أثغري فاكِ فضلا بما أنتِ قائلته و فكِّ أسري من قيدك !

رغد : علَّك تتقفى من قولي أثر التهكم و صيت لغوِه، إلا أني مُصدِقتُك القول في ما أنا محدثتك به. قد مر علي من الزمن أَقل مما مر بك، فلا يستوي زمانُ عابدِ العُلا بميقاتِ تابعِ الأسافِل، و على كُلٍّ، طالما علمناك الأعبدَ لربك و الأقرنَ بإسلامك و دينك، و قد نال مني ترف عيشي ما نالَ و طالتني طوائله، فجئتك اليومَ ألتمِسُ صوابَ السبيل، علِّي أجد في طريق الإسلامِ بعضَ الوِفاق و اللينِ و السلام، عسى أن في معبودِك ما يرجحه عن معبودي، فما أدري أعِبادة نفسي أسلم أم عبادة إلهكم المزعوم .

جلاء : ما عساه يحملَك على هذا، أما كُنتِ دوما مختالةً بترفكِ مَزهوَّةً بفخرك !

رغد : التغير سُنَّة طائِلةُ الجماد نفسه، فكيف بي أنا، من حركت

الساكِنَ لقرارتِه و المتحرِّك لذاتِه .

جلاء : علِمتُ الله مُقلب قلوب، إلا أني ما علِمتُ لكِ قلباً ليُقلَب، فسبحان مبدلَ الأحوال .

رغد : كفاكَ عن هذا و ذاك، ما كنتُ يوما أشدَّ حسما و أكثر جدِّية، و لو أن مظهري الذي تَغُضُّ عينيكَ عنه أزلا ليس موحيا بذلك.

جلاء : ما عهِدتك أبدا على هاتِهِ الحِلية، و ما ألِفتك يوما من ذوي العقول و لا من أولي الألباب. لكن ما عزَّ من أذل عقيدته و أسقطَ دينه، فاسألي ما شئت و أنا لكِ آذانٌ مصغية بعد المحاضرة، لذا أستميحك عذرا للساعة .

رغد : أحِطني خُبرا بأمرٍ واحد قبل ذهابك، لِمَ التوحيد يا جلاء؟

جلاء : إنها معادلة ترجيحية، بل و ربما مجرد مقامرة ما دام الموحِّدُ عقيمَ الاعتقاد عاقِرَ الإيمان. إلا أن العاقِلَ على سبيل التوحيدِ أبدا مهما اختلفت المعتقدات و تلونت الإيحاءات. ذاك لسبب جلي واضح لا يستدعي من التحليل القدر الكثير، أنَّ معاملةَ التوحيدِ

ليست صفقة اختيار و إنما إشكالَ اتخاذ قرار. فإما المراهنةُ على فسادِ فلسفة التوحيد ظنا بفناءٍ أبدي للإنسان، و إما المُراهنةُ على صحةِ الغيبيات التوحيدية و إرفاق مُثلها بالواقع، فيضيع من المرء بعض الفناء مقابل لانهائية الخلود. مهما نظرت إلى الأمر، إلحادُ أيٍّ كان و انقياده تحت وطأة نزواتِه، غباء محضٌ في سائر أحواله ما كان لعاقلٍ أن يرغب عن نعيميةِ الخلود ليصبو إلى اعتيادية الفناء .

أمسَك جلاء عن حديثه و أدبر ظهره عن رغد. كشخصٍ ثالث، يتجلى لي تجلي الشمس في كبد السماء مُقتُهُ لنفسه و كرهه لذاته، و لا بدُّ أن إحساسه ذاك وليدُ أفعاله و تصرفاته. رغدُ ليست بفتاة تُدبَر عنها الظُّهران و تُوَلى عنها المَباصر، هي أجمَلُ و ربما أقدسُ من ذلك لِحُلفاء الشهوةِ و عبيدِ الثواني العشر ؛ غيرَ أنها لم تُرَ منه نفسَ المرأى قط. باديا، قد تغيب عني دوافعُ جلاء أيضا بآخر المطاف، أو ربما لا، من يعلم، يعتمد الأمرُ دوما على دوافعِه و سبُلِ معتقداته، التي هي بشكل ما ،"حُرَّة"...

ألقى الاثنان تلابيب مسعاهم من أنامل مرادهم كارهينَ مجبرين، كل تسوده انطباعاته الخاصة و تأويلاتٌ خالصة لمجريات

الأحداث، لمرتقباتِ بناتِ فكرٍ شيء لها أن تكون عقيمة .

علَّها تهوى استفزازَه، لكن كرغد، كقرارة نفس، كإيجاس رغبة و تطلع روح، ما رغبت لذاتٍ نفسها كما رغبت بجلاء، برؤيته و الاستمتاع برفقته. لم تكن فيه مناضِلةَ قضية وسامة، و لا مسألة شعبية و نظارة، و إنما أرهف قلبها و استرق أنفاسها من رحابة صدرِها إلى ضيق دفئه، عفافُه و امتناعه عما يدقُّ قوقعته و يدك حياءه، تساميه عن الشهوات في سبيل الفضيلة و تضحيته بنزوة الباطِلِ فِداءَ الحق. مُداومتهُ غضَّ بصره عنها جعلها دوما مُدرِكةً لصغر حجمها و ضآلة وزنها لجانب كفة مبادئه، دوما ما كانت الأوثق بجمالها و الأأنَفَ بظرافتها عن غيرها، فأعلت كعب كبرها عن نعلِ تودُّدِه و رخاصتِهِ و خِسَّته، إلى أن سما جلاء فديست، زهدَ فحُطت، علا فانبطحت. تدنيها عن رفعتها و إبدال عرشها بحصير دنيء، عزف على نياط قلبها همَّة لم تُشحذ يوما في غيره، وتَرَ على أحبالِ فكرِها و نظم بحُجرات فؤادها شعرَ الحسرةِ و أبياتَ الأسى، فكانَ عجوزُهَا العجزُ و صدرُها التبرم.

بين هذا و ذاك، كل مشاعر رغد لجلاء، كل عواطِفِ غيره

تجاهه، دوما كانت أرقى مجموعة بِمكَبِّ نِفاياته، لا بال منه يلقى لحسرة تعاش، و لا قيد أنمُلَةٍ من مراعاة توهبُ لعاطفة هي له. كان دوما على حاله هاته، وهو عليها مستمر، فلا اعترافَ يُفضى لَهُ و لا محيى يشاحُ تجاهه. تحت وطأة صبابته و هوَسِ هُيامِه، ما ابتغت رغد إسلاما و إنما ابتغت مُسلمه فأعتبته.

سابقت الساعات بعضها و طاولت دقائقها ثوانيها تمسك الشمس ألجمتها مطلع شروقِها لملحدِ غروبِها، غَرُبت فغرُب رفقتها تعالي جلاءَ و كبرياؤه .

وعدَها بإكمالِ الحديث عما شغل بالها من الإسلام و أركانِه، فراسَلها نزولا عِندَ إجبارِ وعدِه، قد كانَ عندَ تطلُّعِها فكانت على بابه.

جلاء : مرحبا، هذا جلاء، وعدتُكِ سابقا بمُحادثة !

رغد : من كان ليتوقع تماديكَ لدرجةِ رفعِ الحضر عني أيضا، فليُعِد أحدُكم جلاءَ رجاءً هاهاها !!!

جلاء : لن يكون ضغطُ الزرِّ ذاته لمرَّةٍ أخرى مُرهقا لعلمك !

رغد : آه، خشبي كالعادة يا فتى .

جلاء : أعساكِ كُنتِ جادَّةً بشأن ميولِك للإسلام، أم علَّك أتْعَلْتِ عنقك على حُلكٍ مُدهَلم تبتغينه وراءَه و تتدرجينَه ؟

للحظة تصامت رغد مدركةً مهارة جلاء و قدرته اللامُستهانَ بها على تصفح الملامح و قراءة ثناياها فقالت بحذر : قد أكهل عاتقي و أشاخ كياني ما كنت فيه و ما أنا عليه، و إن مصراعي بابي ما عَانَقَتْكَ إلا لعياء نفسي و موت روحها، قد انعدم حضوري و بحلكة ما أنا تحته مُحقتُ و ضاعت هالتي، فما كان علي و مني إلا أن أُواقعَ غير دنسِ موقعي هذا، ألي بدٌّ تراه قط عدا ما أصنع ؟

جلاء مترددا حول موقفه: وما أيقظ وسادتك على مضاجعِ تدبُّرٍ كهذه، ما كان عهدي بك السعي للفضيلة و لا العدول عن الرذيلة!

"رغد وهي تحمل نفسها على حماية موقعِ موقفها بلسانٍ كذب": ما كنت عيية لأحيطك علما بحالي و أديرك خبرا بزعزعة نفسي، و إنما لا يستوي الذين يعلمون و الذين لا يعلمون، بآخر المطاف لم تشرك و لو درب زمالة مع سعادة مواتية لشاب، فما تسنى لك

إدراك السعادة بصورة تعاستها و لا قدر الضنك بين ثنايا غلوها و طيات الإفراط فيها، منها قد فاتتك عواديها و نكباتها و ما أبصرت إلا إكليل الندى فعميت عن شوكٍ كان مقعد بؤسها و عرش وخزها و ضرها.

جلاء : تراك عيني و يحدثني صيت عقلي و دندنة منطقي أنك على صواب أخيرَ من صوابي، أن ما قد أحلك عليك أضاء لي، و ما أنار مبصركِ قد أعمى ناظري، ما كان صوابا ما سعيت إليه، و ما إقدامك لما أنت إليه إلا قهقرة جازعة. لست بصادك عن هُدىً تبتغينه، لكن غارت نفسي وأغبطتك روحي لراحة تسعين إليها في موضع تنكيل، في موضع أعيى كتفي وأرهق كاهلي من تكلف لستُ أهله وليس أهلي، أخطأتِ الرماية يا رغد، قد اقتنصت صيادً كان بارِحته مجرد فريسة لا تلوي على شيء مما أصابها ولا مما قد يكسرها أو هو مُلاقيها. إني أخشى على نفسي من نفسي، أني قد أصدرت حكمي على مضارعي وحاضري فنزلت منزلة الحاكِم على ماضي والقاضي على مستقبلي وغذي، أني بِها كنت على الإسلام وأني منها تارِكُه.

أدركت رغد لحظتها كونها قد أضاعت آخر سبلها صوب جلاءٍ شغفها حبا و أنكلها عشقا و صبابةً و هياما، أنها قد مهدت لختام لوعة استلذت وَصَبَهَا و سطوتَها، لوعةً، أرغمت أنفها و أخمدت بنفسها لذة حب نظارتها و جمالها. في لحظة ولت خلافتها هنيهة تفكير، أدركت أن نياط فؤادها و أوتار كيانها ما ابتغيا إلا جلاءً مسلما يعزف عليها. دوما ما آمنت بحقانية ما كان عليه فتطلعت إليه، و حتى لو كان أنيس وحدةٍ بصفٍّ ضَلالها، فما أغدق ثقلا على أنفاسها وزن نظارة قطُّ أخير لها من إسلامه و قرآنية خلقه، فيه قد رأت الآداب الإلاهية، و خلاله قد عشقت الذات الربانية، ذات تصقل الكمال البشري بفراغ منسوخ، خالف نظراءه في النسخ ببهاء هبته الإلاهية، هبة الإسلام، هبة الخُلق و هبة العبودية لكيان تَمَّ كماله بالنزوه و الفردانية .

أنهت رغد المحادثة بانفلات سلس، وتوارت تعبيراتها و ملامح رسائلها تواري تماسك جثة على سرير التشريح: قد نال مني النوم تطلع مبلغه، و قد غلب نعاسي مرادي، فلنناقش البقية في ما بعد...

تنبه جلاء لانسلات رغد على أنه حائلٌ قد أرْساه طائل، علم أنه

ما جذر به الإفصاح عما ابتلي به، قد أفضى بعادية من عواديه، و باح بنكبة من نكباته، فعاد صبيا بعدما يفع، و عاد شقيا بعدما سعد، قد عقَّ فضلا كساه بارحته في مهده، فأصبح يومه عاريا مذعورَ لحدِه، قد التاث عليه أمره ثانية و ها هو رافعُ همه لحبره و سطوره بدَلَ ما أملته سنَّة الحق و عادته، لُجوؤه لبارئه .

أقفل هاتفه على الوضع الصامت، ضمَّ قلمَهُ سبابته و إبهامُهُ مُزَمَّلا بوسطاه، فتح مذكرته بكل ذمامة مبديا سوأة نفسه لسطوره بعد أن عُرِضت بكل إشراقٍ مظلم أمام رغد، فكانت أول حروفه تمهيدا لنهاية إسلامٍ لم يجدد عقده إلا صباح يومه :

عَلِّي وضيعُ قدرٍ فكانَ شأني من شأنه وسار قدري في ظِلِّ قدره، شئت الحرية فشيئت لي العبودية، وددت سعادة النزوات والشهوات فوُدت لي مسميات الطهرِ و العفاف. أصراط مائل أرقص على ترنحه أم صراط مستقيم أشقى مللا على اعتداله واستقامته؟ أنعيم أراه يتربع عرش راحةِ يدي أم فِردوسا عسايَ و لو باعتكافي لا أبلغه؟ إيمان جازم قد أدركته بيوم قيامة يُقام، و خضوع مطلق لرغبات و تطلعات بل و نزواتٍ هي بنفسي لا

تُهان، أفأجلم نفسي عن مرادٍ قريب، أم أهب روحي قربانا لمبتغىً بعيد، إلهي أنت العادل الكريم و ما كان عدلا تغليب حيوانيتي على إنسانيتي و لا هُوِّي على أناي بأشحذِ ضمائره و أسلَم مبادئه، و لا كرما ترجيحي بين باطلٍ حلوٍ و حق مرير. قد طفح كيلي، سقطت أعمالي بعد إذ رفعت، أُبدلت ملائكتي زبانية ولست أرى من مآل، موضِعُ سجودي أمساً قد فارق ساجدهُ صباحا. ذكرٌ ألف لساني التغني به وتطعم طيبه وحلاوته، ما عاد إلا سماجةً أبدلتها من لساني إلى قلمي. عبدك الطائع قد أبدل ثوب الإخلاص بخيوط الخضوع، طأطئ لك رأسي وجثت لك ركبتاي، عَلمتُك خالقَ الهدى تهدي به من تشاء، ورجايَ منك أن تشاء...

ربما ما أنا عليه طارد إياي من رحمتك، وعلَّ رغدا وليدة نسلٍ حديث تحت لطفك وكرمك، فهلا أريتني فيها عجائب قدرتك، عجيب هديِك وإرادتك، إرادة كن فيكون...

يؤلمني أن أواكب شعر نثري و تدميث سطوري لمخاطب شقت إرادتي بهجران محاداته، أرجو من خالص فؤادي بأفحم سوادٍ أغررته و أحجلته به، أن لا أرى رغد مسلمةً بعد أن كانت آخر

صراطي السوي إلى ضلالٍ مبين، ما كنت أراها قريبة من رافقني و شاركته سرائي و ضرائي، ناجوته و استودعته نفسي و آمنته على حركاتي و سكناتي، ليس عدلا أن ما بنيته لسنين و أعوام و كتبته دهرا لروحى أن يفنى بين ليلةٍ و ضحاها في هنيهة شقاء، لِتملكه هي في لحظة سعادةٍ و اغتباط.

فرغت جعبتي لهذا اليوم، لا تذمر يزال متعرِّشَ استيائي و لا استياءَ متقعد بي أي فكرٍ نائي، مذكرات ثانية، ليوم ثانٍ أخلده شقاؤه، ربما أرجعتني غريزتي و لربما هي صرخة الذّاتِ و نداءُ الجسد، لكن كفَايَ انتحارا و لو كانَ فلسفيا، لا إيمانَ بما لا يرى بعد اليوم ،لا هِبةَ حياةٍ لغير نفسي و لا هبة ذاتٍ لغير روحي، لا إذعانَ لزعزعة الروحِ و اضطراب الوجدان بعد الآن. و لو كان جهلا، ولو كان بلاهةَ و تمردا مفروغا، طفح الكيل و بلغ السيل الزبى !!

أذعن جلاء لخطاب نفسه و أُغرِم بضعفها بآخر المطاف، جلاءٌ غير مسلم، كم أن جملة مماثلة تبدو جنونية و غير قابلة للتصديق، قد أذن لليلته أن تكسوه بجناحها لا دينيا في كسوة ملحد، توسد وسادته و أسدل غطاءه عبد ضلال شهواني أناني، كان الله حارسه

بعين لا تنام، و كانت الملائكة رفيقة فراشه آنا قبل أن يقرر جهلا منه أنَّ وليه الطاغوت، به يضع جنبه، فإما أن يرحم برفعه بلطفٍ إلهي، و إما أن يصبح على : إني بريء منكم، أنا دعوتكم فاستجبتم لي... كله مجرد حمق، تهور، سذاجة، نقصانُ عقلٍ و انهدام سبيل !

إرادَتان

أشرقت شمس الرحمة على جلاء بعد نوم عميق جالت به روحُه كل مكان، و عاثت به تأويلا و مَحْورةً للزمكان. كانت ليلته ليلة كوابيسَ ما أفلتت رقبته فيها من شنق إلا و عنقُه بعدها غذاء المقصلة .هو شكل من التأنيب قد ألفه و لو لم يأنس له خلال أيامه الأخيرة، أياما فارق فيها محل الطمأنينة فأعرضت عنه السَّكينة. لعَلَّه كان قرارا اتخذه بكامل عقله و من أغورِ قرارَةِ نفسه، إلا أنه دوما لازَمَ شعور الإكراه، إكراها على الاختيار، و ولو بدا تعبيرُ الحالِ في حلَّةٍ من التناقض، إلا أنه الأبلغ لوصف حالِه، حالَ امرءٍ ما عادَ يألَفُ نفسه لا باستسلام خيبة و لا برحابة صدر .

رانيا، الفطور جاهز ـ ينادي جلاء ببرود...

حالاً، أنا قادمة ! ردت رانيا بنبرة ظريفة أرهفت قلب أخيها و رقت لها أحبالها الصوتية .

وما هي إلا هنيهات حتى أقبلت الفتاة الصغيرة على مائدة

الإفطار، هي كطبيعتها باديةٌ على سحنتها المألوفةِ و شكلها المعتاد، سوداءَ الشعرِ فاحِماً، ريميَّةَ الأعين نظِرةَ الوجه لا يعيبُ حُسنها إلا فرطُ الظرافة و الجمال، بذلك لم تكُنْ لِجلاءَ إلا لمحة عن نموذج الكمال، لا لعلوها عن غيرها و لا لوحدانيتها عمن يعدوها، و إنما لما كانتهُ له، إشراقا وحيدا في حياته ينيرُ كل جوانبِ عيشه و ركَناتِه، هي خيط شمسه الوحيدِ الباقي و ما عداه ظلامٌ في ظلام .

أما عن جلاء فما برح نفسه المعتادة ولو أنه قد برحَ عرشها، فتى أُنزلت أنوار الرحمة والكمال، فأوتي منها من كل قبس باتزان، شاب عنوانُهُ " شكلا " الاتزان، معتدِل القد، أحلكُ الشعرِ كظُلمة فجرٍ أو إنارة كهف ناء، منصوفُ الوسامَةِ وفي ابتسامته لندرتها شيءٌ من الحسنِ و التوق و الجمال. كان على حاله الدائم، معتدلا في مشيه متزنا في جلوسه يسوده طابع الفخرِ والغرور، وحركاته البطيئة لا توحي إلا بثقة مطلقة أو استسلام كلي. هو حاد الذهنِ ليكتسي إيهابِ عقلية المفترسِ بامتياز، بيدَ أَن كل من يجالسه يخشى على نفسه ما يجهله خشية الفريسة من ظرف لا معلوم.

يتجه جلاء صوب رانيا بعد هنيهة بنظرةٍ أحد من سبعِ شفرات

و لسانٍ أفقدَ أملا من رمقاته :

جلاء : لأي ارتقاب عسى هاته الكراسي الثلاث قد وُضعت، أتُراك أغفلت وعدنا أم تناسيته يا رانيا !

رانيا : حتى لو لم تؤمن بذلك يا أخي فأنا مؤمنة به، أعلم أنهم لا زالوا معنا. ألستَ تقول دوما أن رحمة الله وسعت كل شيء، أفيعجزها أن تسع أرواحاً طاهرة مؤمنة بريئة، أرواحَ أبي و أمي و أخي ضياء !

جلاء : إنه موضوع آخرُ تماما يا عزيزتي، أعرضي عن ذلك، إنسيه أو تناسيه ذلك لا يهم، كل ما يهمني ألا أراكِ أسيرةَ تنكيلِ أملٍ زائف.

رانيا : ما الزائفُ في أملٍ أربطُهُ بإلاه يا جلاء، ما عساه حتى يكون منافيا من ذلك للصواب، أمِن الخطئ الإيمان بقدرة إله !

جلاء : بل من الخطأ معارضةُ حكمِه، لا يعودُ المحصودُ إلى ترابِ وطنه و زرعِه. كما أنني أرغب بالفعل عن الجدال في ما قطع وصاله بالحياة، ليس ذلك أن رحمة الله أضيق من أملك، و

إنما الموتُ عقدٌ إلهي مقدس، مقدس بما يكفي لإيقاعه بخليل الإله ذاته، ألست تذكرين خطاب وداعِ إبراهيم الخليل، فأيننا منه و لا والدينا و أخانا، ما كنا أمة كاملة و ما كنا لله ما كانه إليهِ خليلُه. لا زلت على قيد الحياة يا صغيرتي و سجودك لا يزال مرغوبا لم يُحظَر بعد، فدعي آلَكِ لمآلهم و ذَري البرازخ لأهاليها إلى حين لقاء موعود يوفى في النعيم، لذا فلتكن آخرَ مرة أرى بها هاته الكراسي رجاءً !

رانيا : لكن....!

جلاء : فلنفطر رجاءً ! (أمَرها جلاء بضيق نفسٍ و تبرم فؤاد عرَّت عنهما ملامحه(

مر الإفطار على وتيرة وجبة سجين. و بين دموعٍ صامتة و نظرات خافقة، تجولُ بخاطر رانيا إيجاساتُ ماهيات رحمانية و يشغلُ عقل جلاء استنجاد ماذِية، ما أنا فاعله ؟ ما يصدها عما هي عليه ؟ كيف السبيل ليعودَ عَهدُها إلى سابق عهده !

ربما كان حديثها عن والديها أمرا مرغوبا، إلا أن ذكر ضياءَ و سيرته قد كان قطعا أمرا مكروها . تعلم رانيا من واقِعة تَيتُّمِها

و جلاءَ الشيء القليل، و كل ما تصحو لِصيتِه ذاكرتُها، نبأ وفاةِ والديها رِفقةً بأخيها في خبرٍ ملعون، زجلَ بهِ جلاءُ و عرجَ إليها به شطرَ حيٍّ تحت تأثيره و وقعه. إلا أن المنقولَ ما كانَ مُواقعَ حقٍّ لما رآه الناقِل ؛ كل ما أُعلِمت به رانيا حينها، كانَ إعلامَها بالمتوفين من أسرتها مع الفصل بينَها و ما بدى واقِعاً من الأسباب. إلا أن ما رآه جلاء قد كانَ مشهدا آخر، مشهدا أكثرَ دموية و عصبية و جنونية، كلُّ ما يذكُرُه منه رؤيةُ ضياءَ على ضفة بركةٍ من دماء والديه، و كل ما يتردد على قوله و النطقِ به من حيث لا يَزهدُ فيه : لم أتمكن من حمايتهما يا جلاء، لم تسع قوتي قدرَةً عَلَتهُم و تعلوني، لقد قتلتهما يا أخي، بيدي هاتين ؛ قال ذلك بينما عرَّى عن كَفَّين تلونا بالدماء حتى اندثرت من أثرِها بشرته. فما توغلَ أغوارَ جلاء حينها إلا حِقدٌ بلغَ بنفسجيةَ السواد، و انطلق حينها صارخا بأعلى صوتِه، بأعلى ما وُهِبَه من أحبالِه و أُعطِيه من مزمارِه. كان جهشه بالبكاء حينها فوق أي إدراكٍ و أعلى من أي استِيعاب، ما كان لأي بشري يطِلُّ على رؤيته حينها أن يفهم مدى عُمق جرحه، مدى تأرجحه بين حياته و موته، مدى رفضهِ نفسَهُ و كرههُ لذاته ؛ قد وضع كفيه

حينها على الأرض لأول مرة دونَ غرضِ السجودِ بعدَ حَبوِه، سقى الأرض بأملَحِ عبراتِه و أمر دموعه، و كل ما يردده بين صدى الفضاء و مناجاةِ نفسه : لا يمكنُ، لا يمكنُ، لا يمكن.... ؛ لا ينتهي الأمر هكذا...؛ هذا قطعا غير ممكن... فما آنَ لهُ أن يتيقظ من سكرته حتى كانَ ضياء بارِحَ موقِعه و مقعَده، بعدَ قرارٍ مماثل، ما عادت له فرصةُ العودة و لا رحمةُ التبريرِ و الغفران، لا كابن آخرَ يتيم، لا كَمُواسٍ و لا كأخٍ من جديد... ضياءُ الآنَ لجلاء، ما هو إلا قاتِلٌ فارٌّ مَنَع وِصالَ الحياةِ و خيط الروحِ بينه و بينَ والديه. و ما يزيدُهُ حقدا أكثرَ و تمعضا أوفر، ما آلت إليه أخته الصغرى، صديقة دربه و خليلة روحه رانيا ؛ تلقيها للخبرِ في سنٍّ تكادُ تعتبرُ مبكرةً نظرا لهولِ الخبر، قد قادها إلى أزمةٍ نفسية حادة، عدَلت بها عن عقلها و أفقدتها رابطتها بذهنها و فؤادها، فما عادت تذكر من حاضِرِها إلا جلاء وحده، كلاهما لبعضهما الذاتُ عينُها و الحياةُ نفسها، و هما معاً كالشعلَةِ على وشك الانطفاء، أي نسيم يطفئ أحدهما سيُريقُ لهب شمعة الآخر...

مرت ضائقة الإفطارِ المبروم، و دون سَبقِ شعور، ساقت جلاء

أفكاره حتى كانَ و رغدا على نفس المقعد بالجامعة، لا جلاء يعلم كيف انتهى به المطاف بمشاركة مقعده إياها على قدرِ ما رغبت عنها إرادته لترغب فيها خطواته، و لا رغد تدري كيف يرضى المرء بأمرٍ سابق عهده به أن سخط عنه دهرا .

ربما كان جلاء متشددا، أو عله حتى قد كان متعصبا يقبض على دينه و لو كانَ جَمرا تنسَّلَ عن حِمم، إلا أنه لم يكن يوما ذا قلب حيي و لا ذا فؤاد خجول، فتعامل مع الموقف ببرود تام رغم امتعاضه مما قادته إليه قدماه. عكسَه، رغد حتما الأكثر انفتاحا و الأكثر احتضانا للغريب و القريب، إلا أنها وعلى رغم ما هي عليه ، أبت وجنتاها إلا أن تحمر و أنفاسها إلا أن تضيق، فالفتى الذي شغفها حبا، أنفاسه، عطره، رائحته، حركاته و سكناته ؛ ستكون جميعا رفيقتها لساعات كاملة من المحاضرة ؛ ما ارتأت أن يكون حظها أكثر فيضا و جودا من حظها اليوم ؛ أبدا...

نظر الاثنان إلى بعضهما في استنجاد، كل يرجو عونَ منظُورِه، و لا تقول عين الواحد منهما إلا " أي طرف خيط أمهد من خلاله لمحادثة، رجاء !! " يقعُ الأمرُ على عاتِقِ رغد غالبا، و إلا فإنها

ستعيش أسوء بل أطول بل أملَّ محاضرةٍ سبق أن وهبتها تركيزها من قبل ؛ و جلاء المُزمَّل في دفء قوقعته، لا يُتوقَّعُ أن يهُمَّ بالمبادرة في كل حالٍ من الأحوال .

رغد : مرحبا ! (صاحب ترحيبها ابتسامة طفيفة توحي بالسلم و تدعو إلى السلام)

جلاء : يبدو أنه كان لقاء مكتوبا في الأخير، أليسَ كذلك !

رغد : ربما، ما دام أنك تؤمن بهذا، لكنني على كلٍّ سعيدةٌ بلقائنا مجددا...

لم يبدُ جلاء شخصا قد يرُدُّ بالإيجاب، إلا أنه جليا قد اختار فِطامَ نفسه و خيانَة طبعه : سعيدٌ أيضا بذلك .

سادت لحظة صمت و ارتباكٍ بين الإثنين قبل أن يبادرَ جلاء مجددا : مهما يكن، ما عساهُ قد ضاقك في ما تناولنا حديثه اليوم الماضي ؟

رغد : ليس بالشيء المهم !

جلاء : أخشى أنه كذلك لي على الأقل !

كانَ قصدُ جلاءَ سارياً بجنب حدث هجرِهِ لدينه، لِذا هَمَّتهُ معرفةُ أسباب مقبلٍ جديدٍ عما أعرض عنه حديثا، كان الأمرُ أشبه باختيارِ شعبةٍ تحدد مسارَ مستقبله، إلا أن حاله ستحدد مستقبله نفسه إلى الأبد ؛ هذا في حين أن رغد قد بدت سعيدةً جِدًّا باهتمامه، و كل ما رأته كانَ فرصةً للانفتاح كليا على لطفه، و من ثم مُجازاتُه بِجودٍ من جنسِ جوابه :

رغد : ما كنت لأقول أنه ضاقني بقدر أنه قد فاجأني، و ما كانت فجأتي لانسلاخك و لا ما رأيته من ضيقي لاختيارك، و إنما أبرمني تلاعب الزمن، أن ينقلب أعبدُ العباد عن دينه حين آوي إلى صفه، هذا لم يكن مجرد حظ تعيس، بل هو الشقاء نفسه. فما ثبتت على أمرٍ أنت من أهله و خاصته، إلا ووجدتك من قبيلٍ غيره، فأيننى منك و أيننى مما أريد !

لا شك أن ذلك قد بدى اعترافا مباشرا من رغد بمبتغياتها الأصلية، إلا أن جلاء أبى سيرَ الأمورِ على مضمارها الحالي، فأعادَ تصويبَها لأسلَمِ وجهة، لوجهة لا تؤذي أيا منهما أو تنزع ضمادَ جرحٍ خفي :

جلاء : لست من يبدل أهله بأهالٍ غيرهم، و لا ممن يقلب ذيولَ ظهره و يوليها لأدبارِهم، و إنما ما كنت للإسلام أهلا و ما كنت لموكبه إبنا، أوَ تحرق الأهالي نسيليها و ذويها، أفتكبل المواكبُ أصحابها من ماشيها و بنيها...!

رغد : ما أنت مما كنت فيه بمقيد و لا مفقود، إنما أُنزلتَ منزلة السمو و وُسمتَ مسلما نالَ بما أراد الزهد لا تمارُض عنه و ما كانت به من علة خفية. إنما طبعت لمبصرك الصحف و عرضت عليك الشرائع و السنن، فما وقع اختيارك على مباح إلا أبصرته حراما، و لا على مكروه إلا رأيته كبيرة، و ما وقعتَ على سنةٍ إلا أنزلتها من شريعتك منزلة الفرض في الإسلام ؛ حفت النار بالشهوات و حفت الجنة بالمكاره. فلا شك أن تراكم المكاره على بعضها و القضبانَ على نفسها، إما أن تسجنك إلى الأبد أو أن تَحطِم السجن كله. قد غلب قرينك المكبوت ملاكك المرغوب، فلا لوم على إسلامٍ و لا ذنب واقع على كاهل صحفه ؛ إنما يبرؤ الدين ممن يشاده ليغلبه .

جلاء : ما أأمن الإسلام تحت كف رغدية، أتراك أسلمت أم أن قوافي حديثك على مقام الإسلام أكثر جمالا و أطلع بهية...!

عساك تجدين منه ما تجدين، و ترين منه ما تبصرين، غير أن ما تقع عليه رحمة نفسك إنما هو نظارة هياكل شكلية، و لو رأيتِ الإسلام من عيني، لَدريتِ بمدى قمع الهوية، بما لا يُضِل من الإنسان إلا استخلاص خضوع و خنوع و عبودية !

رغد : و ما موقعنا من مواطئنا لولا نعمة الخضوع و إخلاص العبودية، ما كان ليستوي العاقل و الأحمق ؛ و إني ما رأيت الإسلام إلا تعقلا، و ما كان ظني بمدبر ظهره عن جوهر كونه و أصله و معالم آلائه إلا متحذلقا متحامقا يعمي نفسه عما تراه عينه بمظاهِرَ جلية .

جلاء : ما أحوجك للإسلام و ما أنسبك لمقاسه و أقومك على قياسه ؛ ما جَذُرَ أن ينال الدهر من عمرك كل ما نال و أنت يتيمة الدين مبتورة سلامِ الإسلام، ربما أنا على أعتاب تركه، أو لعلي بالفعل خارج وهمه و إجباره، لكنني لست بصادك عن رونق زهريته و جماله. أعلم علم اليقين أن في قلبك فراغا تملؤه فجوة أعمق، و إن الإسلام لمالئها فطوبى لك...

رغد : على كل، بتهميش جاذبية حديثنا جانبا ؛ قد واقعت

البارحة صدفة الاطلاع على صفحاتٍ معدوداتٍ من كتاب استهوى حواسي جميعها على حين غرة فأثار منها ما أثار، لا جناح و لا قيد على أحدها و لا استثناء، جمع بليغ الكلام، و ليس يخلو من بديع و إدهاش جمالٍ ما فيه يقال. ولو قُدِّر في علمي غالبية نفورك مما تدعوه بسيد الدجَل و أمير الدجالين ؛ إلا أن الأحق بالأمر وضعه تحت مجهر التجريب. هذا مني و اقبله عربونَ صداقة و ود أدخره فيك كامتنان ؛ علك تجد فيه ما تصبو إليه، و ترمق على صفحاته ما يُقِن سبيلك لضالّتك إذا ما أمِنت له و اتخذته من عزائمِ الحسبان .

جلاء : ليست الحروف بقديرة على أن تغريني لأحط رحالي على خبرٍ منها، جاز أن يتوج بالتصديق و وجب أن تحمل عليه أوزار التكذيب. إلا أنني لسبب ما أرى في ما تدعينه بصيصا طفيفا من أثر التسليم و التصديق ؛ فما قولك لو ارتأيت ذهابنا الآن، بيني و بين القراءة دهر طويل و قد ايقظت فيَ وحشتها...

رغد : هل الساعة ؟

جلاء : بل اللحظة !

ما هي إلا هنيهات حتى انصرف جلاء عن مقعده، و كان ذلك بمثابة دعوة مباشرة لرغد، دعوة لانصراف خاطئ لزمكان خاطئ تماما بدوره... جر الاثنان سبيلهما يطويانه إلى حديقة الكلية، فما تَقَعَّدا خضرةَ عشبها، حتى همت رغد بإعطائه الكتاب، و البادي من نظراتها بريق لا مثيل له، و حماس لا تكافئ كفَّتَه كفَّةٌ تعدوه. وبالمقابل ما كانت لحظة تناول جلاء للكتاب لحظة ثانية تدبر و تمر، و إنما بدت ساعة بلغت كسوة زمانها يوما كاملا، لما تضمنته من سكون للهواء و إطباق في مقطوعة الأجواء و سيمفونيات الأهواء... ما كانت الاستثارة اللحظية لغرابةٍ اختصت العنوان عن ما عداه من باقي الكتاب، عنوانٌ بخطٍّ عريض يقول : " إرث آلاء ".

ما كان العنوان يعني شيئا لرغد إلا أنه كان أثمن ذكرى لجلاء، ربما تُختزلانِ في عينِ قارئهما في كلمتين، إلا أنهما كانَا وحدة متناسقة كاملة من آثارِ ماضٍ مرغوبٍ غابر، و بالإمعان في عينيه البراقتين جليا، لا بدَّ أنهما كانا من بينِ أثمن ذكرياته، بل لاشك أنهما ذكراه الأثمن قطعًا، ذكرى من أعز آدميين إلى قلبه و أقربهم إلى فؤاده،

ذكرى والديه الأخيرة، كل ما تبادر حينها إلى ذهنه قول والده قبل سفره المشؤوم بأيام معدودة : أتعلم حقيقة حياتنا يا جلاء ؟ أتعلم سبيل عيشنا يا بني ؟ ما كنا يا بني باعتيادية باقي البشر، نحن عنهم أبرز و أقوى و أحفظ للماضي لمستقبله من غيرنا، فسواء متنا أو حيينا فاعلم أننا دوما رفقاء دربك و بنو سبيلك ما تمسكت بكلمتين اثنتين، "إرث آلاء"، علها آلاء الدين أو علها هبة الحياة، مهما كان نوعُ الآلاء أو مفهومها المتبادر إلى ذهنك، فإني على يقين أنه ليس حتى قريبا مما أعنيه ؛ لكنك حتما يوما مُلاقيه ؛ حينما تصادف الكلمتين في أي محطةٍ من حياتك، فاعلم أن تلك آخر نسمات روحنا فداك، تمسك بها و لا تتركها إلا و قد فككت عُقدتك و أغبطت كَربَك...

ما كانَ أمرا يسيرا لجلاء مواكَبتُه لشدة تيار أفكاره من كل ما تبادر إلى ذهنه ؛ أخيرا و بعدما أصبح يرتقب بعض السلام، يجد نفسه أسيرَ دوامة أخرى من التساؤلات و الأفكار، تساؤلات و أفكار من نوع لا يستطيع لها أيَّ إشفاء غليل أو إقامة سبيل. لست أستطيع لومه لو اختارَ الهروبَ إلى أبعدِ أرضٍ و أخلى قِفار ؛ علك لا تستطيع ذلك أيضا عزيزي القارئ، فقرارُه بالنهاية لن يكون أبدا

وليد اختيار، و إنما دوما نتيجة إجبار. مهما كان ما ظننته أو ظننتم، فإن جلاءَ أقرنُ دوما بأغربِ اختيارٍ و أعسَرِ قرار.

رغما عن حليتها الجمالية و جمال مصادفتها البهية، كره جلاء ما عُلّبَ سجينا في صدده، إلا أنه و غضا للطرف عن كل ما يسعه مجال إدراكه و مَرآه، قد قرر أن في مصادفة الكتاب هاته لا بد جوانب خفية، و التي غالبا يجب أن تقوده إلى نتيجة واحدة لا تزاحمها ثانية، أن وقوعه على ملاقاة ذكرياته عبر عنوان كتاب ليس صدفة. أسلوب التلميح أيضا قد أشارَ بشكل جبار إلى شخص واحدٍ، إلى شخص لا يشركه غيره في فردانية أسلوبه و تميز رسائله و تلميحاته. بالأخير، كتاب تقترحه رغد كعربون صداقة في توقيت حساس كليا، يُخشى فيه على جلاء ما يُخشى عليه من تيه الضلال و سوادِ السبيل. كتابٌ لا يتعدى العارِفون عدا جلاء بفردانية اسمه، كَلِمتا عنوانه. مهما نُظِرَ إلى الأمر، البَلادة و البلاهة وحدهما تتجرَّآن على وضعه محلَّ الصدفة.

في لحظةِ فجأة، ارتسمت على وجه جلاء جديته المعتادة، إلا أنها قد بدت ساعتها أقرَنَ بالتخويف و أقرب للتهديد باتخاذ حدة عينيه

موضِعَ اعتبار. يجد في ثوانٍ صراط طلبه و مسار توجهه إلى عيني رغد مباشرة في عِتاب حادٍّ سِماهُ التأجيل و البَعدية ؛ فصَبَّ عينيه على غرار انثناءاتِ أنامله و انبساطاتها في تفحص سريع لصفحات الكتاب، ليجدها مرفوعَة السطورِ، على عروشها خاوية.

لم تنفك إيماءات الكتاب عن إبهاره بإيحاءاتها المتتالية؛ إلى أن طفح كيله بإهداء خالف العادَة الجارية و المألوفات السارية، فواقَعَ ختام الكتاب بدلا عن أوائله. حاول قراءة مضمونه باستماتة بينما كان بجانب رغد، فكانت الحروف تأبى وصال عينِهِ بقربها، و لا يتجلى البعض منها إلا ببعده عنها؛ لا بد أنه كان إهداء خاصا به، أُختُصَّ به عن غيره، و ما جَذُر إلا به أن يحمل رِحال نظرته بين ثنايا سطوره. ما فطِن جلاء لحيلة الكتاب و جوهر أمره، حتى تسنت له قراءة الإهداء أخيرا، فكان مما رآه من قولِ الكِتاب : " إلى الوريث الموعود، إلى الحامِل الجديد، إلى حامل آلاء فكرنا و رسالة آبائنا، إلى آخر رعاة الكتاب، طِبتَ صباحا و زكيتَ أمسا ؛ قد نُفِخَ في صورِ عهدك، قد آن حينك و حان أوانك، إرعَ الكتابَ يرعاك و أقبِل على مسارٍ اختاره لك، مسار اختصك به عن غيرك و فضلك به

عمن سواك، كن برعايتنا و آتنا، إرعنا تكن رانيا برعايتنا و رعاية الكتاب. السبيل مرسومٌ بخيوط من ذهب، هَلُمَّ، نحن بانتظارك ما وسعت قدرة رغد خلال ما مر من دقائق، إلا أن تبصر ما يجري حولها بنظرة بؤسٍ إشفاقية، ملأها بؤسٌ عن سوء طالع منظورها و شقاء قراءة أقداره من أكُفِّ حظوظه... فما كان من وسعها و لا من طائل مبادرتها إلا قولها بصوت تكاد نبرته تحمر خجلا على أصدائه و يتصدع الخوف و الخشية على أوتاره : " قد أتيت بك لموقعنا هذا عن قصد مرغوباً و إخبار سمته اللطف و الأصل منه الإكراه ؛ لو شئت، فككت عنك ريبة ما أنت فيه و ما أنت عليه من حيرة، و قدتك إلى موطنِ الجواب و أرضِ ما تنظُرُهُ حواس بصرك و وجدانك من صواب إلى دار نشرٍ البادي أنك على صاحبها بقرابة "

كان لدى جلاء فكرة واضحَة مسبقا عمن يكونُ المُقَادَ من رغد إليه، إلا أن قدرته كانت أوهن بالقدر الكثير من الحد الذي يتيح له قدرة الإدراك و قوة المجابهة و العراك؛ فما كان منه إلا أن أومأ رأسه باصطلاح إذعان الموافقة و الإيجاب...

وما هي إلا دقائق تفوق رؤوسَ الأصابع بقليل، حتى وجد

جلاء موطئه غيرَ ما كان عليه من سهو أصابه، بعد ذهوله من تراكم إعجاز ما أبصره، و مما غارَ في عقله من إرهاصاتٍ و توقعات. فما رفع محياه إلا انسحبت عنه ضبابية عينيه و أبدلها ما رآه، سواءٌ أضلُّ سبيلا و أغرق إعماء من وطأة ما نزل به و ما كان واقعا فيه. ما احتملت عيناه إلا تسليم مقبض البؤس و مشعل الندم إلى ذاكرته، ذاكرة تجدد عهده بسوداوية كرهه و بنفسجية حقده ؛ فكان أول ما جال بخاطره و خطر بباله سؤال شقيقته الصغرى : " ألستَ تقول دوما أن رحمة الله وسعت كل شيء، أفيعجزها أن تسع أرواحاً طاهرة مؤمنة بريئة، أرواحَ أبي و أمي و أخي ضياء ؟ "

ضياء ـ عطاءُ الكراهية

لم يكن سؤال رانيا عن علم محفوظ، و إنما أبان عن أمل مقبوض. ما ضر جلاء في سؤالها حنين كيانها و لا انشطار قلبها، و إنما انهمار دموعها جهلا بارتقاب رفض مطلوب و انتقام مرغوب ؛ قد عَلم عِلم اليقين أن الأصابع الثلاثة المبتورة، منها اصبع خائن، أصبع خان وصال رفيقي موقعه و ملازمي تصرفه و حركته و فعله. فوجب أن يُعدم الإصبع الزائد بموجب حكم العاطفة و سُنة المشاعر. كل ما تبادر إلى ذهنه حينها كان انشغاله عن نفسه بمن كانت أعزَّ له و أنفس منها عنده ؛ ما خاطب نفسه إلا قولا بسكوت علا صخبه قذائف الرعد و نوازل الصواعق : أين رانيا من نفسها جاهلة بقاطع نسلها و باثرِ منبع أصلها و سقياها...

بين لحظة تيه و رمشة سهو ؛ استجمع جلاء نفسه و صوب نظره إلى سوء ما أبصره ؛ فسرى لسانه بدبلجةِ عقله دبلجةً ما عابتها مراعاة و لا تخللها تبرير :

جلاء : ضياء هاه، مر وقت طويل يا فتى !

ضياء (بنبرة ساخرة) : أافهم من ذلك أنك اشتقت إلي؟

جلاء : لا شك أنك عدت شخصا آخر تماما، لستَ من ألفتُ النظر إلى وجهه و الاستمتاع بمجالسته ؛ لا شك أن ارتداد المرء قاتِلا ينزع من قسماتِ نفسِهِ و ملامح فؤاده الشيء الكثير...

ضياء : يا له من لطف بالغ !

كان حوارا ميتا بكل المقاييس، جمله تزاحم بعضها، منها ما يحدث كراهية و ما يُرَدُّ عنها إلا بسخرية ؛ لم يكن البرودُ السائد بين أجواء الأخوينِ أبدا شيئا يطاق، نظراتهما الميتة و تركيزهما الحاد، كانا أقرب إلى حال صيادٍ متربص بطريدته، من أخوين أفطرا عن صيامِ لقاء دامَ لما فاق العشر سنوات ؛ رغد الجاهلة بسير الأحداث، كادتَ ترجو لو استطاعت سبيلا إلى التماسِ كفٍّ أو قراءة فنجان، و لو كان يفصل بينها و بين ما هو على وشكٍ الحدوث مجرد بضع ثوان...

جلاء : لا نية لي بإطالة الحديث و لست أستطيب فكرتها أساسا

؛ لذا أجبني عن هذا قبل أن أنهي أمرك على الأقل، أعساك ارتأيت الركوع لمقصلة الكفارة أخيرا، أم أن الحمق و السماجة قد بلغا منك مبلغيهما للحد الذي ينسيك من أكون، أو ربما تناسيت أيضا بعد مُلاقاتي أين ستكون...

ضياء : ما كنت أبدا بما تدعيه من قوة يا جلاء، أَعْرِض عن..

و ما كاد لسان ضياء أن يرتد، حتى كانت قبضة جلاء رفيقة وجهه حبيبةَ محياه. تتالت عليه اللكمات بعدها كالسيل المنهمر، لا جلاء يدري ما يصيب و لا قبضاته تعي من الجراح ما تحل و من دمائها ما تُريق. كان الاثنان في ذروة استمتاعهما بالنزال، كل ينهل لذته منه طِبقا لمبتغياته الخاصة و مشاعره الخالصة ؛ جلاء يرى نفسه أخيرا جديرا كابن بالثناء بعدما حضي بفرصة ذهبية لاستيفاء انتقامه و تحرير دماء والديه من أكف ابنهما الملعون، و ضياء يجدها فرصة أخيرا لخلاص نفسه و خبو شعوره الدائم باقترانه بلعنة ذنبه. ربما اختلفت زاواياهما، إلا أنهما معا كانا مستمتعين لحد النشوة، فلا لذة تقارع خطاب الذات و أحاديث الجسد، مهما اختلفت أساليبه و تعددت أشكاله، فمفعوليته دوما واحدة، لا كلمة أعلى من حركاته

و لا لغة أبلغ من لغاته.

على ما ميز المشهد من صخب، إلا أنه بدا ساكنا بشكل غريب، استمرارية الضربات اللامتبادلة، و وثبة جلاء اللامتغيرة، جعلت اللحظة تبدو كأنما تكرر نفسها. قد ظل سكون الاستقرار لمدة على حاله، إلى أن أفاق الاثنان على حضور نسيا وجوده أو تناسيا حضوره، على رؤية رغد مشيرة بسبابتها لكليهما مستلطفة تدخل رجال الأمن، لينتهي لقاء الشوق أخيرا على وقع أقدام لا مطلوبة و لا مرغوبة.

ربما فارقت أجسادهما السنون العديدة، إلا أن تصرف جلاء و تحركه قد أوحى بعزيمةٍ آلفة مريدة، تنفي إقدامه الحديث بما أحدث و على ما استقر. أما عن إقدام رجال الأمن، فبقدر ما كان خلاصا لضياء من تشويه مشؤوم و ألم محتوم، إلا أنه استنفر ما استقرت عليه إرادة القدر و وقائع تدخل ما أحاط به من نفر ؛ ليس تعاليا عن قانون واقع و لا تملصا من إخضاع مجبر، لكن ضرورة الظرف و إجباره تطلبا من الحدث غيره و من الواقع دونه، لتصب كل مياه في قِدرها و تخر كل أنهار في مجاريها، فيرسم الواقع على وقع

منحنيات صوره و مختلف دلالاته و تعابيره...

ظل السكون وليد الركود الحالي، إلى أن تستقر عقارب الساعة على مستقر كانت أعجز له بيانا وأجهل به توقعا وحسبانا؛ على تحالف عدوين لم ينزلا عقد الهدنة المؤقتة، إلا على أوراق أعينهما وصفحات موطئهما بتقدير غفا عن التنبه له كل من عداهم.

في لحظة استثنائية كشفت الستار عن عقد الموطئ الحديث، أفرغ جلاء المجال لرغد وضياء، منزلا عقابَ خلاصه على كل من اعترض طريقه وأوقف سبيله؛ في حين أمسك ضياء بيد رغد و انطلق بها خارجا مديرا رأسه ناحيةَ رجال الأمن يأمُرهم بالتوقف عن اتباع جلاء معترضا.

بعد دقائق من تمكن جلاء من الهرب، حانت لضياء الفرصة أخيرا لهديه وإيقافه عن اندفاعه معترضا عن كم عناده، تطلب الأمر ساعات متواصلة لإقناعه بالاستماع له واتباعه و لو لقدر قليل من الوقت حتى يستطيع على الأقل تبليغ رسالته و مراده، إلا أن محاولاته جميعها قد كانت دون جدوى. إلى أن لجأ إلى بطاقته الرابحة الأخيرة فساءله عن الكتاب وإهدائه.

نالَ الموضوع استحسان جلاء فانصرف عن عناده، و سرى بقول مديد لا ينقطع يحكي به أدق تفاصيل الإهداء مبديا قلقه من غرابته، سواء في ما خصّ حروفه الحمراء المرصعة بالجوانب الذهبية، و كذا تخفيه عن رغد مهما غيروا الزاوية بحيث تشغَلُ مجال الرؤية أيضا، كل هذا و ذاك و ضياء مستمتع أخيرا بإنصاته في سلام، و قد بدا أنه على غرابة ما سمعه لم يعجب لأي كلام.

إستمر الحديث لساعات طوال، انتهت المحادثة على إثر أهمِّ أحداثها. بعد استظهار جلاء الإهداء لمرات عديدة، استوقفه ضياء دوما عند جملة واحدة دون سواها، " إلى آخر رُعاة الكتاب ". قد غلب ظن جلاء أن ضياء سيكون عالما بمحتويات الكتاب ما دام من أرسله، إلا أنه قد اتضح أنه لا يستطيع إلا رؤية خاتمة الكتاب، والتي كانت على نهج غرابته في بدايته، لم تكن خاتمة مهمة في أي حال من الأحوال، كل ما تضمنته أنه لم يكن الفتى المختار و لو كان من أهالي الكتاب، أن الكتاب لو استدعى علما و معرفة لكان له أكثر من راعٍ و حافظ، إلا أن صفة بهذا الحجم لم تكن مسألة وحدة ذكاء بقدرٍ ما كانت مسألة ضبط عواطف و تحكم بالمشاعر

الخاصة بالراعي و حاملي الكتاب معه على حد سواء. على كل، كان لقب الراعي من نصيب جلاء، إلا أن ذلك قد بث في ضياء شحوبا لم يُرَ له من قبلُ مثيل، بدا خائفا كصبي صغير يترنح على غصن شجرة معلقة بجبل، تصبب عرقا و بدا أكثر خوفا و خشية مما يُتوَقَّعُ أن يكونه أي شخص من كتاب ؛ و في لحظة طالب فيها جلاء بالإفصاح عن طريقة الولوج للكتاب بعدما تنبه لها بأواخر أسفل الإهداء، تبين أن الأمر يتطلبُ اتحادهما معا مع حملِ الراعي لمفتاح الدماء.

مفتاح الدماء لم يكن مفتاحا عاديا أبدا، كانت قطرات الدم تتصبب منه تصبب العرق، حمرته كانت مائلة لشيء من السوداوية، كبير الحجم و هالته هي الأشد شرانية، لسبب ما شعر جلاء بوالديه جليا في المفتاح، أهو مجرد حنين أم أنها هالة مرتبطة بالكتاب، كل ذلك بدا خفيا لوهلة، إلا أن ضياء قد بدا لسبب ما على علم واسعٍ بالكتاب، لا تخفى عليه منه خافية، هذا علمٌ لا يؤتى بمجرد المعرفة، و لو فعل فلَن يتسم صاحبه بالثقة، إلا أنه قد كان جامعا لأوصاف اليقين، يقينا لا يؤتى إلا بسبق احتكاكٍ و خِبرة .

قد كان المكان الذي انتهى إليه الثلاثة عاريا متبرج المظهر، مكانا لا يلائم كتابا سحريا و طقوسَهُ المعنية أو مهما كان ؛ لذا كان على إلحاح الإجبار و طِبقا لضرورته، أن وجب عليهم المغادرة طواعية أو إكراها لمكانٍ غيره. ليجرُّوا رحالهم إلى أبعد بقعة طالتها أعينهم، إلى أن استفاقوا على حقيقة تناهي صغرهم تحت شساعة محيطهم حتى عادوا يبدون بدو الأنعام على سفوح الجبال. ما كان هنالك ما قد يحتويهم من صراخ الرعد و بكاء المطر إلا جحر ذري المظهر متناهي الصغر، لا يسع من أبدانهم إلا أطوالهم فلا تعدوها لرحابة أوسع، كأنما قيس لهم و نُسجت به خيوط القدر، كان دقيقا بشكل مبالغٍ فيه على أن تطلق عليه سِمة الصدفة، لذا كنتُ نفسي لأرجِّحَ كونه من صنيع الكتاب، فما عادَ شيء يستثنى من قدرته بعد الآن، كأنما هو لمحة ربوبية أو قطعة موهوبة من صفةٍ إلاهية .

ما توجت لحظتهم بطعم فرح و سرور، و لا بنكهة اغتباط و انتصار؛ و ما ارتسم على محياهم و قسمات وجوههم حينها لا لمحات تحالفٍ و لا نظرات اطمئنان، فما جالَسَ موضعهم إلا تبرُّمٌ عَلَّبتهُ ضرورة الكبح، تفاديا لإثارة مخاوف أخرى قد تؤثر على إدارة

طقس ولوج الكتاب.

رغم بلوغها كل هذا الحد، إلا أن رغد قد بدت مرتعبة جدا من فكرة الكتاب، بل حتى من فكرة الاستمرار، إلا أن سبيلها قد أضاع بالفعل فرصة أن يُخلى، لا لبعد طريق العودة و لا لعجز منها، و إنما الأمر كله عائد لضياء، فهي بعد الآن قد عادت آلية دفاع.

بين شهيق و زفير قررته أهوال اللحظة و فزع أحوالها ؛ بادر ضياء بالحديث و محياه لا زال يعيش صراعه الخاص، بين مسح قطرات الدماء الأليمة منه و نَطٍّ ما فاحت به لأنفه عنه.

يقول بعدها في ثوانٍ فاصلة : أمستعدون يا رفاق !

جلاء : إقض ما أنت قاض بسرعة يا هذا، ما عدت أطيق صبرا بعد، فما كنت مفلتك بعد أن أتيتني ملئ إرادتك و قصدك لِتَسع أكف يدي بعد أن أفلت منها حينها بسلام...حي على مرادك يا ضياء و اعفني من طول مصاحبتك...

ضياء : كفاكَ توهما يا جلاء، فلتبدلني بداوة تصرفك و همجية طبعك بإنصاتك، و إلا فإني مُطلعٌ رغدا على ما أورثتك إياه، علك

قد تحب فكرة علم حبيبتك بما أنت عليه بآخر المطاف .

جلاء : ليست حبيبتي، و إياك أن تتجاوز سكينتك إلى ذلك، لن أرحمك لو فعلت. لا أحيط رغد بعلم يفوق ظاهري بالشيء الكثير، فلست أعتبرها حليفة كما تفعل بآخر المطاف ؛ لذا حتى لو كان فضولها أبعد بشبر، لَيكونن خيرا لك و أصوب حتى أن تبعده باعا...

رغد : أتفهم حتما أن لكما أحاديث سرية و ثنايا أخوية نجمت عنها أحقاد شخصية، بل لست أدري المغزى من مرافقتي لكما أساسا، لكن رجاء، حلوا محل العُقَّل و اجزموا فيم أنتم فاعلوه، يكفي حمقا و طفولية...

تفاجئ جلاء كليا من أسلوب رغد في الحديث، هي لم تكن فتاة من النوع الذي يكشف عن امتعاضه بهاته السرعة، بل و ليست على القدر الكافي من التعقل لتصف فتى مثله بالطفولية، إلا أن التغير الحاد في طباعها لا شك ناجِم عما أصابها و نالها من الخوف و القلق ؛ و البادي أن ضياء قد لاحظ ذلك أيضا، لذا بدا جليا أنها كانت اللحظة الأمثل لإطلاق الطقس و تحرير الكتاب...

ضياء : سعيد جدا بإرفاق عاقلة بأحمقين، قرار في الصميم !!! على كل، قد حانت ساعة الجد أخيرا، ما عادت هنالك فرصة للتراجع بعد الآن، لذا سألخص سير الأمر في جملة واحدة ؛ كتابنا هذا يا جلاء ليس أوراقا بين دفتين، و ليس كتابا من مؤلف مارٍّ أو من كاتب اعتيادي. هو صحيفة مُحكمة صنعت من سحرٍ رفيعٍ على يد سقراط الكبير، أب الفلاسفة لو كنتَ لا تزال طري العهد بوصايا أبي و مُخلفاته من الفضائل العلمية.

يبدو أن سقراط في الأخير لم يتخل أبدا عن فضيلة الكتابة، و لكنه ببساطة، قرر كتابة التاريخ بطريقته الخاصة. على أي، لا يبدو التوقيت ملائما لمحاضرة فلسفية و لا لطرح فرضية منها. كل ما يهمنا مما نعلمه، أن الكتاب السحري قد صنع خصيصا ليكون وسيلة نقلٍ فكرية زمكانية وفق مجموعة من الشروط، حيث يعني تجاوز الشروط المعنية موتا مُحتم.

رغد : و ما هي الشروط إذا !

ضياء : إنه الجانب الخفي من الكتاب، و للسبب ذاته فهو بمثابة سيف دون مِقبض. قد وضع كبير الفلاسفة كتابه هذا متضمنا

لمجموعة من الشروط الأولية .

١ ـ ألا يلجه إلا من كان يسعى إلى شكل من المعرفة، و تقوى حظوظ القارئ كلما مال سؤاله إلى حُلَّة كوسمولوجية.

٢ ـ لن يستجيب الكتاب إلا لكل من يشغله هدف التغيير، تغييرا لحياته كان أو تغييرا للحياة العامة، ذاك لا يهم.

٣ ـ كل من لا يستطيع التوصل إلى الشروط الأساسية للعوالم الداخلية الكتاب، مصيرُه الموت ؛ و كل ما يصله علمي حول هذا الشرط انطلاقا من مصادِرَ سبَقَ حسن عهدي بها، أن الشروط الداخلية مرتبطة بشكل ما بإحدى الخطايا السبع المميتة، و لست على قدرٍ كافٍ من الذكاء لأتوصل إلى أيها تكون...

رغد : فماذا إذا عن مفتاح الدماء !

ضياء : إنه حامل أرواح السابقين من رعاة الكتاب، و هو مصدر تغذيته، كلما كانت الطاقة الروحية أقوى، كلما ازدادت دقة عوالمه الداخلية و ازدانت تفاصيلها. قطرات دمائه أيضا، هي أسلوب تحذيرٍ و نذير شؤم لحامل الكتاب، يمكِنكِ وصف الأمرِ

على أن المفتاح يحدث حامله بجوعه لروحه على غرار السابقة لها إليه بشكل صريح.

جلاء : قد ألمنا بكل ما ذكرت، ألَم يحن الوقت بعد !

ضياء : أودك أخيرا أن تعلم يا جلاء، أنَّ ما نحن بصدده تمام ميراثك و كماله، و أحب لو تدري أيضا أنك ما حييت، مهما عشت و صلت و جلت، و لو جمعت علوم المشرق و المغرب، و وطئت الشمال و الجنوب طولا و عرضا ؛ لظل في خلدك دوما ما يُسائله و يجهله. ففي كوننا خفايا عديدة و أسرار مديدة، فلا يجد من ريحها إلا من وهب ملكة القدرة و تمكن النظر و البصيرة. سنجد في مَرحَلنا من العلم ما لا تعلم، فاستق منه ما شئت و اعفِ نفسك به من مصيبتك. هو كذلك فرصة مواتية لحاجتك يا رغد، لذا احرصي على إشباع كل فضولك !

سقط عقل جلاء ضحية دوامة لانهائية من الأفكار، و كل من يسمعه من صيت عقله و لحن هاجِسِه : " أي عالم يكتم عن ذويه نواميس السحر و باطن بهائه و تمكنه و جماله ؛ ما علمت من السحر إلا تفريق المتحابين و هدم الخواطر و قطع الصلات و الأواصر.

فأي سحرٍ يُخطُّ على كتاب، و أي جزء من عهدنا به، قد تطال قدرته نزول منزلة الميراث ؛ و ما أصلي منه أساسا و ما صلتي به بتاتا ؛ أينني من السحر و أينه مني. ما وسعتني مضايق القدر، و ها أنا ذا في ضيق آخر، ضيقٌ أشسع رؤية و أبرم حلة.

طالت الإرهاصات منها مطالها حتى أعيت حيلته، فما وجد بُدًّا إلا أن أعتب قدره على أدراج التسليم. تنبه بعدها ضياء في لحظة لملامح جدية الأجواء، فأدرك أن دقائق المماطلة قد ولت، و قد آن حين الجِدِّ و ربط الرحال.

تناول جلاء بِيمناه مفتاح الدماء، وأمسك الثلاثة أيادي بعضهم البعض؛ فيمنى جلاء تشكو نفورها من ضياء ويسراه تكره مصاحبة رغد. أمر ضياء بينما يغمض عينيه "أغمضا عينيكما، إسترخيا و رددا ورائي في تناغم و اتزان: يسير الإنسان إلى معرفة الوجود فينسى أنه موجود، يرجو علم الورائية فينسى الملموس، يبحث في المجهول إلى أن يؤولَ معلومُه إلى مجهول، شراهة علم الآدمي لا تنتهي، و ما يعرِفُ مآلَ أمره، إلا أنه لا يعرف شيئا ". و قبلَ لحظة من انتهاء طقسِ استدعاء سحر الكتاب ؛ يحظى ضياء بمفتاح الدماء مغتصبا

إياه من جلاء، بينما كان منغمسا في أعمق لحظات انعزاله و تركيزه.

قد كان ضياء الأقدرَ لا شك على مواكبة الطقوس، ما كان لحديثِ عهدٍ بسحرٍ و لا بكتابٍ أكانَ ذا نعمة أو ملعون، أن يتصرف على نحوِه من الاستقرار و الثبات و إقرار الخطوات. على الأقل ليسَ بالقدرِ الذي يخول له نهبَ مفتاحِ الدماء، مفتاحا لا يسَعُ قدرته إلا راعي الكتاب، مفتاحا غذاؤه الروح و طاقة الحياة. كان حتما أكثر تمرسا بكثير من مجرد عالمٍ بأركان الكتاب و أسراره، يشغلني ما عسى منبع قدرته يكون على كل حال...

ما هي إلا ثوانٍ معدودات، حتى انقلبت خلفيةُ لمحة الحياة إلى ما عداها ؛ و أيقظَ آذان الثلاثة و حواسهم كلها ما أرهب طبول آذانهم من قرعِ الحق و تزمير الواقع. جميعهم على موطئ جديد، أريجُهُ الفواحُ ما كانَ أبدا ليحيل إلى عبيرٍ قد تستنشقه في مدينة يغلب عليها بكاء المعامل وسعال الحافلات و السيارات، و لا حتى ريحُ الكهفِ الذي التجؤوا له ما كانَ ليقارِع ما استثار أنوفهم. هو شيء أكثر طبيعية، نسمةٌ حميمَةٌ للماضي مَرسومةُ قسماته و محياه و لو استحال بالرجوع لرأي الواقع ذلك. تأويل ما غمرهم من

إحساسٍ تملَّك حواسهم أنذاك، ما يُخبر إلا عن أملٍ باقٍ واحد، أن الاستدعاء قد وافقَ إرادةَ النجاح، و بموجب ذلك، فلا بدَّ أنهم استفوا جميعا مطلوبَ الشروط.

موقف سابقُ نوعِه و الأول بالنسبة لهم من جنسه، إستدعى ردَّ فعل موحد هو الأصلح بطبعه. تراجع الثلاثة لثوانٍ يبتغون استدعاء ذكرياتهم، و كل ما تيقظ له ذهنا جلاء و رغد، ترنيمات طقس الاستدعاء و تعويذاته ؛ في حين كان ضياء سابقَ خطوة على نهجه مذ بداية الرحلة الزمكانية.

لم يَبدُ عالما مألوفا أبدا، و لا ما فيه يوحي حتى بالمعاصرة للسنوات الألفينية و ربما قبلها حتى، بل لا شك أنها حضارة أخرى، مكان آخر تحت ضرف زماني آخر، يستحيل على وجه الإطلاق أن تخفى المواكبة العصرية عن أي بقعة من بقاع الأرض خلال الألفينيات، و لو تجردت البعض منها، فمعلومٌ أنها لا تتجرد من إدراك وجودها و المعرفة بها على الأقل.

هو لا شك في أكثر الحلي اعتيادية و طبيعية ؛ عالَمٌ تفرَّدَ بنوعه عن أعين المرتحلين الثلاثة، فمن سالَمَ نهضة الثورة الصناعية و كان أحد

أبنائها و ذويها، ما كان له أبدا أن يؤتى له تصور عالمٍ بهذا القدرِ من المثالية، عالمٍ تطغى فيه صيت الأرواح و طاقات الحيًاة عن توتر الكهرباء، عالَمٌ تفرغ فيه الأكف من لعنات تحمل العالم كله و تقيس موازينه، عالَمٌ مثالي مطلق، يطغى فيه على الأشياءِ البشر...

بين اختلاف الموطئ واستحالة الأجواء، كل ما شغل ذهن جلاء بلسان نفسه كان: " ما عسى مَبصرنا هذا يكون، ما بلغ عقلي مبلغ الحق بقدر ما أصاب منه حال السكون. ما كان عهدي قديم عرفٍ بسحرِ صفحاتٍ و لا بكتاب مسكون، ما مَلبسُ ما يحيط بي آلِفُ جسدي و لا كان يوما من مطامع ملبسي، ما أنا محدث به بلغتي و ما كان يوما بأدبي و لسانيتي، إلا أن لساني يجري به سلسا جريان الماعز في الجبال و الهِرر على الحبال... لو حقَّ علي الجزم بما أراه، لقطعت شكي يقينا و حسمت في أمر ما أفترش أرضه و أتسقف سماءه، أنه أميل للأسيويات الثقافية من غيرها، و أكثر قربا و يسرا للقطع بكونها أقرب للصين من نظيراتها في القارة. والألح بالذكر والأجدر به، أن المحيط الكوني لما نحن فيه، موحٍ بتشوهٍ زمكاني لم تُستهلك قدرته بنقل الأبدان، وإنما تعدته بصقلها وموافقتها

لتشبيب ورجع الزمان...

خلاصة ما توصل له جلاء خلال دقائق تفكيره المشوشة، أنه هو، ضياء و رغد، و مهما كانت الطريقة السحرية و سُبُلها، قد نُقِلوا جميعا للصين القديمة، مستترين بأقمشة أهلها متحدثين بلسان ذويها....

الفصل الثاني :

البشرية، بين توحيد البيولوجيا النفسية و تفكيك القومية

الحكم في المقدسات الصينية ونهضة أنوار الكونفوشيوسية

ماضٍ أوعى من غده : في رحمة لقاء

تعاقبت الأيام مأذونا لها بأفول الشمس و مغيب القمر، إلى أن بلغ الجوع من المرتحلين الثلاثة أشده، فما علموا أين ينتهي مآلهم و لا حيثُ قدِّر احتواؤهم، لا أسرة تعيلهم و لا نفس تُقيلهم. كانوا كالإبن الضال لا موطئ له على ميتم و لا مَدَاسَ لهُ على مأوىً أو معال ؛ يصيبون من الحظ ما يصيبون، فما يكون على رأس مبلغ حظهم قدرٌ يعلو شربة ماء يشتركون فيها منزلة سقيا الأنعام و ري البهائم. فظلوا على حالهم أياما معدودات جحظت فيها من بؤسهم أعينهم، و برزت فيها من جوفهم هياكل أجسامهم فكانوا كأعجاز نخل خاوية، إلى أن اهتدوا بعد طول عثرة القدر و ضلال السبيل، إلى إسطبلٍ، أواهم بأحضانه صهيل أحصنته و معزوفات حوافرها، فشاطروها نباتها و قاسموها سقياها، و ما ظهر عليهم آدمي إلا ظنوا به مظَن العدوان ففروا منه هاربين آمنين من سوء مخشي و استنكار مكروه. و ما مرت عليهم ساعة على حالهم، إلا و وثب جلاء على ضياء ينهم منه سراءه و يُكرِمه ضراءه، حتى قاده لأقصى

حافة حتفه، فما بقي بينه و بينها إلا فاصلُ التقبل و إرادة الحياة، فما عاد يفرق عن متوسد التراب و مفترش قبره إلا بشهيقه و زفيره.

ظل على حاله يصارع حتفه و يدفع وَهَنه، إلى أن عرفت نفسه هنيهات احتضاره و ظُنَّ بها لحظة فراقه... فما كاد عزرائيل ينهل روحه، إلا وجد أسبقَ لسقياها رسولا غيره، سعى لحفظ روحه بقدر ما سعى هو لاستيفاء وعده و إتمام أمرِه .

يقطَعُ المشهد رجل معتدل القامة، رجلٌ كانَ مرادِفا للقبح و وصفا للذمامة، أفطس الأنف ضخم الأذنين تحيل أسنانه إلى حيوانٍ بري لاحم و ما كانت أبدا لتشبه خاصَّةَ إنسانٍ قارت، صدقوني، قد كان شكلا وحيدا من طبعه، أشك أن الهوليود سمايل حتى كفيلٌ به...

وبتهميش وصف المظهرِ جانبا، فقد كان مظهره النفسي مطبوعا على خطابه الجسدي. بدا بشكل ما عظيم الهالة ضخم الهامة، مقطب الحاجبين مقرون الجفنين، يخالط بياض محياه شيء من الصفرة و الشحابة، وعلى الرغم من مظهره الرجولي، خالط حركاته و رمقاته شيء من السكينة و اللين و النعومة ؛ فما أدرك

الرائي أنازلة كربٍ هو أم نزيل حب و اطمئنان، ما استقرت قدمه بخطوة أدبرت و لا كعبه بإقدامٍ مقبل إلا احتارت أخلادهم و ارتبكت عقولهم بين تراجع بحربٍ أو إقبال بسلام، و ما إن هم بين تخبطهم و استقرارهم، حتى مدَّ كفَّهُ و قد بلغ من التعضل ما مكن له كف جلاء عن ضياء و إحالته إلى مقعد غير ما كان عليه لهنيهة مضت...

ليست مسألة فصل صراع أخوين كان أحدهما على مشارف الموت و لا قضية تلطيف روع فتاة اصطكت أسنانها و ارتعدت فرائسها، و لكن المُناضل و المساءلَ في ما حدث، فردانية منقذهم و لا نديته إقرانا بنظيري خلقه و واطئي ترابه و أرضه...

ضياء بصوت مبتذل ساخر ما كنت لأدعوه بنبرة فتى كان على مشارف الموت منذ هنيهة: في آخر ثواني وقت البدل الضائع تماما، يبدو أن عمري ما يزال مدركا لأمدٍ أمدّ!

تغيرت ملامح الصيني المقبل من قسمات رجل تراوحت هالته بين إحسانٍ آت و إضرار مدبر، إلى رجل علا الاستغراب علمه و توج التعجب نظرته. ربما حدثه ضياء بنظير لغته و مثيل لسانه،

بل حتى بنفس حروفه و لكنته، إلا أن تراصَّهُ الكلامي قد احتوى بعض العجائب مما لم تقبله آذان المتلقي و لم يأنس له إصغاؤه.

للمرة الأولى، و بعد عهد طويل طالت معاناته و لو قصرت أيامه، يجد الثلاثة ما افتقدوه من اللطف و الرحمة الإنسانية، جَدُرَ بمآلهم أن يؤول إلى الفناء، إلا أن حظهم الملازم قد كان أجود و أكرم، فحق التساؤل حتما و وجب قطعا تنبههم لتباين شخصيات المقيمين بموطئهم و اختلاف أكنتهم و وجدانهم.

معلوم الآن إطلاقا، أن الأرض المظنون بها الجذب و القحط، تبين أن بعض زواياها قد فاح أريج إزهاره و نماء نباته و ورده، و لو كان نسل الإزهارِ زهرةً واحدة، و ولو كان نماء النبات و الورد جليس شبر أو ذراع...

مهما بلغ بصر الواحد منهم مبلغا معلوما، إلا و شاءت صفحات رجائه لطف المصير و بهاء القدر، و لوجد الكل منهم مآلا محمودا أنست له قلوبهم و لانت له أفئدتهم؛ فكانت مصائرهم أرحم و أوهن و أبلغ مراعاة و تقديرا من سوء ظنونهم و مبالغ علمهم... ربما يغلب في الظن تدبير الذات و حكمة الفرد نفسه، إلا أن ما

ضاقهم من كرب، تطلب عنصرا خارجيا يلين سلاسل النازلة و يفك قيد المصيبة، فوُجد الصيني وأبان عن أمة رحيمة، هي وليدة نفس الأمة الجدباء العقيمة .

بعدما لحظ جلاء ما نال الصيني من استغراب و تعجب، تنبه لعسر مواكبته و سوء تتبعه لمسار الحدث و أحاديثه، ما اضطره لإعادته إلى مضماره و سِكَّته موجها اعتراضه لضياء في امتعاض و عِتاب : ما الذي تبتغيه بتكليم بدائي بِكلام مماثل، قد تدفعه لاعتبارنا أعداء لا حلفاء بأَمارات طيشك هاته، أي بدلٍ ضائعٍ قد يُعلم في حضارةٍ كهذه !

ضياء : ينبغي أن تلوم شدة ضرباتك أيها الأحمق...يا إلهي كيف استطعنا حتى أن نكون على هذا القدرِ من الاختلاف!

رغد : و لِم قد تتشابهانِ أساسا، لم أعد أفهم شيئا...

جلاء : إنصرفي عن ذلك، هذا موضوع لا علاقة لهُ بكِ و لا صلة لكِ به. لذا فلتكوني نافعة في شيء، اغوي الصيني أو افعلي به ما شئت ما دام مصرا على إشهار راية السلام، هيا قبل أن ينقلب

بياضها إلى سواد، علنا ننجح هذه المرة في أن نعلو عن منزلِ الدوابِّ إلى صفةِ الإنسان و لو في حُلَّة الطعام و الشراب !

لعلها على سبيل الإمكان قد كانت مجرد مزحة، أو مرجو كونها كذلك على الأقل، إلا أن رغد قد أصابتها وقفة تعجب ساءلت نفسها من عساه يكون حامل هاته الكلمات و ناطقها، أهو جلاء نفسه الذي شغف قلبها حبا، أهو الطاهر العفيف قلبا و قَلَبا، أهو حتى جلاء حقا...؟

قد يزعم الناظر لحالها على أنها شابة تعيب في محبوبها انعدام إدراكه و فقر اهتمامه، إلا أنها في قرارة نفسها قد كانت في كامل التذمر و الأسى لتمارض و هرم السابق المألوف من حاله. ولا شك أنه قد مر بها من أصناف الذكور و أطياف أشباه الرجال القدر الكثير، إلا أنها لم تخل يوما أن من رأت فيه التعالي عن موازين العالم و النزوةَ من شوائبه و اختلالاته، قد يصبح اليوم أحد أشدها تركيبا و تعقيدا و حلكة، أن يصبح اليوم وليا من أوليائها بعدما كان أمسه الانقى بل الأتقى حالا و شأنا .

على أي يبدو جليا أنه لا يسلم ذو قلب من تقلب الأحوال، و

من قلَّب قلْب جلاء على الرذيلة بعد مناصرته للفضيلة، لا محالة الأقدر على تبديل حاله للتي هي أقوم لمرة ثانية، فسبحان مقلب القلوب، و صدق من قال : " دوام الحال من المحال " .

عودة إلى مشهد نظرات رغد البائسة، حق القول أن مبصره لا يجزم في جوهره و قرارة نفسه، إلا أنه قطعة ذهبية من مسرحية محكمة الأدوار مسبرة الأغوار مصقولة الحبكة. تحت وقعه، كان حديث الأعين و صيت الملامح أعلى من أي صدى قارع الأجواء في سكون حالها من صهيلٍ و غيره.

فما وجد الصيني المتطفل على إسطبله بفضله و لطفه بُدًّا عدا أن يستبق صفحة السكوت السائد، فكان مما سرى قوله به: أرجو العذرَ لإزعاجي أيها السادة، لكن هلا تفضلتم بتوضيح بسيط !

رغد : أنت منقذ يا رجل، لقد كان حرفيا على وشك قتله

جلاء : أما عني، فقد هلَّت علينا روح إبليس من جديد بفضل دخولك المفاجئ، كان ليولد عن تأخرك لدقائق معدودات حتما قدرٌ أبهى و أبرق...

الصيني : على كل، لا شك في كون ما نزل بنا من تصوير الواقع، على أنه تدبيرٌ قدري خالص يسعى إلى مجرى محدد لحكمة مفعولة، لذا سيكون حكمة منا جميعا مماثلة القدر في إرادته و دعوته إلى أفضل نسخ نفسه !

ضياء : حكمة مفعولة ؟

الصيني : لا عليك، أجنبيتكم عن المحيط الصيني و عدم إلمامكم الكامل بتجسيد عقليات أهله و بناء ذواته، سيشكل نوعا من التحدي لكم جميعا على ما يبدو، لذا فلنعمل معا على تجاوز ذلك...

رغد : لم أعتقد بالصينيين لطفا بالقدر الذي أقرنتهم به بالعملية المفرطة و الهوس، يا للمفاجأة !!

جلاء : إدراكك أننا أجانب بنظرة واحدة و توقع جهلنا بالثقافة الصينية أيضا ! هذا مدهش، لا شك أنك لست محض شخص عامي...

الصيني : هذا لطف بالغ منكم...و ليكونن في غاية اللطف و

تمامه تعرفنا إلى بعضنا بشكلٍ أنسب، ما رأيكم ؟

ضياء : لا أمانع ما دمت لا تبرح حدودك الخاصة لتتعداها لخطوطنا الحمراء...

جلاء : اطلاعك على أسمائنا وحدها سيكون مشكلة بحد ذاته، و أخشى أن قعر أمرنا أوسع بكثير و أعمق مما يطاله فهمنا حتى، فكيف بك أنت أيا كنت !

الصيني : مهما حاولت التعامي عن الأمر إلا أنكم جميعا تنشرون هالةً قوية من الشبهة، والأسوء كونكم لا تبدونَ أشخاصا مشبوهين أبدا، يمكنني الإقرار بذلك كلما نظرت إليكم على الأقل. هارِبٌ من العدالة أم من كانَ مطلوباً حيا أو ميتا، ليس أبدا شخصا يستطيع الابتسام بهذا القدر من الهدوء والسعادة. لا بُدَّ أن ما يخفى من أمركم يتعدى الطبيعة البشرية، فإما أنكم مجانين أو أنكم على صلة بقدرة موثوقة عَلِيَّة...

جلاء : لا تنفك عن إبهاري بلا اعتيادية ذكائك و مدى عِظم قدرة تحليلك، لكن أخشى أنك ستتدبر أمرك بأسماء مزيفة نزولاً

عند رغبتك و مكافأة لحدة حدسك و تناهي ذكائك. يمكنك دعوتي " مين "، أما عن هذا فسَمِّهِ "فاي" و أخيرا بإمكانك مناداة الفتاة هناك بِـ"نيو" أو "آن"، أسمِها ما شئت ما دامت أسماء مصطنعة !

الصيني : هي أسماء جميلة حقا، يا لجمال الاختيار و ظرافته. مين، فاي و آن إذا !

ضياء : يجب أن أكون ممتنا، ما اعتقدت لي اسما بهذا القدرِ من الاعتيادية...

جلاء : حقَّ أن تكون كذلك، الحظ حليفك ما دمت على علم ضيقٍ بالأسماء الصينية و إلا نسبتك لِنكرةٍ أو حيوان !

الصيني : أنا كونفوشيوس، تشرفني معرفتكم جميعا و لو كان ذلك بتتويج أسماء مزيفة. أما الآن و قد علمت أن جهلي بأسمائكم الحقة أمر محتوم. فماذا عن مساقيكم؟ ما عسى منبت موطئكم يكون، عسى أن يكون لي حظ وافر أُزهره به على أرضنا هاته...

رغد : أخشى أن في موطننا بعض التعقيد أيضا، بل الكثير من العوامل التي أنا على يقين أنك لن تستطيب الخوض في غمارها و

لن يتسنى لك ذلك أبدا ! ليست مسألة رغبة ولا إشكال إرادة، بل مصيبة ردٍّ قدر مكتوب وفاجعة إحالةٍ لقعرٍ مكروب، فوجب بموجب ذلك أن إمساكنا عن إطلاعك على ما تشاء أكثر رجاحة للعقل وأصوب سبيلا للحكمة والمنطق. لذا أرجو ألا تأخذ الأمرَ على محمل شخصي...

جلاء : إنتظر، لحظة، قد أقررت منذ قليل أن اسمك كونفوشيوس أليس كذلك ؟

كونفوشيوس : نعم، قد فعلت !

جلاء : أيعني ذلك أننا في مقاطعة "شاندونغ"، بل مدينة "تشيوفو" على وجه التدقيق !

كونفوشيوس : نحن كذلك بالفعل، لكن أنى لك استنتاج ذلك باعتمادِ اسمي وحده دون سواه ؟ بل كيف عساه ينفعك في تحديد موقعنا أساسا؟

لمرته الأولى، كان كونفوشيوس مفرطا في طرح أسئلته، دوما ما اعتقد بملاءمته لطبيعته حتى أصبحا كالجسد الواحد، فما عاد يخفى

عليه منها من شيء؛ إلا أنه على مسارٍ لم يعهده أبدا، يسائل شبابا في مقتبل العمر عن بيئة اعتد دوما بمصاحبتها وملاءمته لها و معرفته بها. لم يكن ضعفا منه ولا جهلا أبدا، وإنما كان في مقارعةِ ما يفوق استيعاب بشري و قدرته، بشريا عاش على نُظم الطبيعيات لم يألف عداها و لا يعرف سواها. بمراجعة الوضعية بشكل أفضل، فلا بد أن عبقريته قد تعدت حدود المطلوب من بشري لا يطاله التاريخ إلا بمشقة بالغة؛ بالأخير، إدراكه لشبهة الثلاثة ولا اعتياديتهم، و كذا تنبهه لاحتمالِ احتوائهم مما أو لما يتخطى حدود الإنسانية و ما تسعه قدرة البشر، لا ينم إلا عن عبقرية مفرطة و ثقة مطلقة، ما يبلغها المرء إلا و لو كان بينه و بين محيطه الفيزيائي عقد و ميثاق غليظ، يقضيانِ بالائتناسِ و يشهدانِ بِأهلية المصاحبة...

جلاء : مجيئنا إليك و إقبالك علينا لم يكن محض صدفة، بل و وجودنا الآن نفسه أمرٌ جلل. وليس بالأمرِ السهل ولا اللين، لتتيسر السبل وتتعبد الطرق لفهمه لمجرد تحليك بصفات الذكاء وقسمات الدهاء. لذا أخشى أن ما أقبلنا إليك فيه باطِلُ المبتغى ساقِط الحكم ما إن يتأثر صدى فكرك بأي عوامل خارجية. إجمالا،

لا نفع يرجى من تعرية أصولنا، كن أنت رجاءً...

كونفوشيوس : اعتقدت بكم بدايةً سيّاحا أو طالبي عِلم أقبلوا في سبيل معرفة يلتمسونها، إلا أنك تتحدث بتعالٍ كافٍ يكادُ يوحي إما بأنك وليد حضارة أبهى أنا جاهلٌ بشأنها، و إما أنك سابقُ عقلك و زمانك... ليست بِحالٍ ألفت مصادفتها حقا !

جلاء : فلتتوقف عن الافتراض على هواك رجاء، لن يكون المآل محمودا...

ضياء : سيدي، أخشى أن جلاء على حق. يجدر بك الكفُّ عن افتراض الأمور، بل يفترض بحدة ذكاء أن تنبهك فعلا بأن إدبارنا عن سؤلك و تحاشينا إطلاعك على فضولك ـ الذي لا أشك أنك تبتغي به رعاية على وجه التأكيد ـ، راجع أساسا إلى خشية نهابها و نأمَنُ شرها. فَأمسِك نَسلَم !

كونفوشيوس : سعيد جدا بهاته الفرصة، لا يخالجني شك في كونكم نخبة نابغةً من المتميزين، استقبالكم جميعا شرفٌ مرغوب...

محل ضياء من كل ما سلف، لم يعد منزلة الشيء من منزله، فما

كانت رقابته على مسرى حديث كونفوشيوس ورغد، بقدر ما أولاها مُصوبة النظر إلى جلاء تقتنص منه معرفة ما أودى به ليصبح ما هو عليه، لينتهي به المطاف إلى ما هو عليه، موؤود الضمير، ساكن الخلود، معدوم الوجود. جلاء المقدر في علمه والسابق عهده به، ما كان إلا ملاكا مبتور الأجنحة، إنسانا بعقل بلا شهوة. ما ظفرت إنسانيته يوما بسبيلها إليه، و ما كانت إلا صفته الملازمة عن تكوين بيولوجي و مظهر خارجي، و لا شيء عداهما يوحي بنوعه الخلقي و انتمائه الجمعي .

يا ترى لأي حد ترى خيوط القدر قد تمادت لحبك انقلاب بهذا القدر من التعقيد، انقلاب المرء على نفسه و اغتياله لذاته، بل و تطاوله على وجدانه و اختراقه لحقيقة كيانه. فتى بهذا الوجه من الانصراف، قطعا منعه عن نفسه مانع و حال بين ذات بينه و بين معتقده حائل. مهما نظر ضياء نظرة راغب بحث و راجي تنقيب، ما لاحت به السبل إلا لأن يخلص ختام أمره بتبجيل جلاء السابق و بالإقرار بضياع نعمة كيان، كيان كان فكان الخير، كان فكان النور، كان فكانت الرحمة و جمال العبودية و حسن الإخلاص و

الإذعان...

لعل الأخوين وحدهما عالمان بمتم أمرهما و عاقبة سالف حاضرهما، أو عساهما الأخص بمعرفة عقدة جمعهما و نكبة كربهما على وجه الحفظ و الاستيلاء، إلا أن ما تدرؤه أعينهما بين الدقيقة و عاقبتها، ما حل على كونفوشيوس و رغد، إلا محل وحي حدث عن مكنونه بصوت أكلمته نظرات بعضهما البعض. و بقدر حدة جلاء و رقة ضياء، تقابل البغض و الود في الأفق، فبدت كراهية الأول و حنين الثاني، كلٌّ تنم صفات إبصاره عن مكنون فؤاده، و بذلك حدثا بكل شيء محدثين بلا شيء. فعلم كل موقف الواحد من الآخر، و علم المفترس منهما من الفريسة، و وضع كل ذي موضع مقدر في محله و موضعه...

على شاطئ الركود السائد، لطمت أمواج البهجة لحظة مد رمال القحط اللغوي، و كانت بسمة كونفوشيوس، رافعة هم ما نظر منه من سبيل بعد أن وجه ذراعه أفقية بانثناء عمودي نحو المخرج، آذنا بملاقاة محل جديد...

ولج الثلاثة بمعية الصيني، قصرا بهيا نم إشراقه كممتلك عن

أنوار مالكه، و ما أوجس جلاء في نفسه إلا قيلا أوحى بامتنانه للحظته، فما تجلى ذلك بقدر قوله : وهبنا القدر ولوج موطئ ما ارتأيت لبديعه من مثيل، و قولي فيه، إنَّا لَمُنعمون، بل نحن مكرومون. مكرومون لملاقاة شمعتنا الخافتة لهذا القدر الملائكي من النور والضياء، محظوظون لما أُنزِلناه إعلاءً في موضعٍ كان الأصلُ بمنزلتنا فيه التحقير، اغتباط لحظاتنا هاته، ما كان ليحيل إلا إلى امتنان لقدر و مديونية لمصير لا متوقع...

رمق الثلاثة بعضهم في هنيهة سابق السرور الإعجاب على محله من الرؤية الآنية، و قبل التلفظ بأولى تعليقاتهم، أبدى كونفوشيوس وجها مستحيا تطبعه العزة على ما وسمه من معاني الحرج و الاعتذار، فقال :

كونفوشيوس : ممتن لرضاكم بموضعكم، و لو حدث بأي وجه كان أن ضقتم صدرا و ضقتم ذرعا مما أنتم فيه، فلا يساوركم خجل في سؤل محل يرقى لتوقعكم و يستوفي رغباتكم !

جلاء : أعني، حلية التواضع كاملة البهاء و النضارة. لكن ألا تعتقد أنك تبالغ برعايتك و تدليلك، أيعقل أن يكون ما هو أبهى

مما نحن فيه أساسا ؟

مواكبة لرد جلاء وانبهار رغد وضياء، لزم وجوبا أن تتفاعل ملامح كونفوشيوس وأن تستجيب غرائزه بشكل مخالف كليا لما آل الأمر إليه، والأولى بالفخر مضيف نزلائه في قصره، وما جاز ولو على وجه التواضع أو المزاح أن يخجل ذو الجنة من جنته وبذلك قياسا أن يخجل ذو الروضة من روضته وذو القصر من قصره. فكيف سار المنحى لعكس ما انبغى له ؟ و إلى أين عساه يلقى مبتغاه على كف حاكمه و مريده؟

ظاهر الحكمة مرسوم على قسمات الحكيم، و تجلي الرسل و المعرفة بادٍ على سمات كونفوشيوس القولية و كذا على معزوفاته اللسانية. لذا كان بإطلاق الإجبار كونُ تصنعه للأمر أو طلائه له بصفة المزاح أمرا محالا و خيطا لا ثقب لإبرته. ليتحتم بذلك أن في الأمر وجها ثالثا لعملته، وجها يتيح أن يأنس للرأس والطرة وجه ثالث، فتتشوه العملة لتبدو على ما يقمع شكلها و يطمس تعريفها و حَدَّهَا...

عالم تتشوه فيه الإبر المعنوية، بل و تحتمل عملاته المعدنية أوجها

أخرى مجازية، ليس عالما طبيعيا على وجه التأكيد، و الأبلغ أمانة في تحديد ذلك و الإشارة إليه، ما هو الآن حاصل من اختلاف بين امتنان لولوج قصر و خجل للاستضافة في كوخ، ببساطة، و حسب ما توصل له جلاء جليا، فإن ما تراه أعين المرتحلين الثلاثة، إما أنه حقيقة يعمى عنها كونفوشيوس، و إما أنه خيال كلت أعينهم عن رؤية حقيقة هيئته، بل و لعل الأمر يتعداه حتى إلى عامة الموطن المنتقل إليه أيضا، و باتخاذ الأمر على وجه التفسير و العقلانية، فلا سبيل للمنطقية من هاته النقلة الزمكانية، و كل ما يستطاب قوله و يستحل الإقرار به، أن من كان سفره بين صفحات كتاب سحري، وجب أن تقر عينه لأي نمط سحري يتخلل سير سبيله و هيئة متاعه...

بمراجعة الأمر شكليا، يبدو بوضوح أن الانتقال زمكانيا، كونُه مصحوبا بفقدان مفتاح الدماء بشكل لا يعلمه إلا ضياء، و بإتقانٍ تام للغة دون سبق أدنى معرفة بها، قد صاحبته محاسن عديدة، أولها تبرجا، قدرة الثلاثة معا على نقل ما في الأذهان لمطابقة الأعيان، عينهم دون سواهم، بل و حتى القدرة الصريحة على كتابة الخيال

على رسالة الواقع. باختصار شذري، كل مسافر حملته نسائِمُ ارتحال الكتاب، قد اكتسب عبره مسبقا القدرة على رؤية محتويات أذهان الصينيين الذين زاروهم، وهذا وحده ما قد يفسر إتقانهم للغة يجهلونها جهلا مطلقا، فضلا عن كوخ كونفوشيوس المظنون به قصرا عن غير ذاته...

توصل جلاء لكل ما سلف بعد طول تفكير مر في هنيهات معدودة، فأدرك أن كل ما امتد إليه بصره من بذخ بصري و إسراف دوباميني، لم يكن إلا مجرد سراب استرعى الأنظار و توارى عن الأبصار بكسوة الخيال. فما إن طال إدراكه ذلك حتى انضبَّ السراب المحيط به عما أحاط به، فآذن ضبابه الزائل برؤية كوخ تدمى العين لرؤيته ويحن البصر لمدى خضوع رقبته، ليجد أخيرا محل اعتذار كونفوشيوس من موقفه، وخجله من سوء تقدير رحمته.

سارت طرق أعين الثلاثة تبتغي سبيل ملاقاة بعضها، ليعلن الكل منهم نصره الساحق أمام تيه خلده. فسار معلوما في ثانية ما جُهل أمره في أيام، ليوجس بذلك جميعهم في نفسه علما مستحدثا قضى أن العالم الذي نقلوا إليه، فضلا عن التشوه القدري و كذا

الزمكاني الطابع له، هو عالم وهبت كفته العليا للخيال فيه. و المسألة الأبرز، أن الخيال الطابع له، بادٍ على أنه خاصية من خصوصيات مرتحلي الكتاب و أهله وحدهم دون سواهم .

بعد طول الانصراف القهري عن مسار السهم الأول، عاد الحظ لمحالفة الثلاثي المرتحل، ليكون من إزهار أقدارهم أن كونفوشيوس الذي لاقوه، و كما اعتقد جلاء تماما، ما كان إلا حكيم حكماء الصين، نبيها، مرمم حاضرها و باني مستقبلها. هو من أبلغ حقانييها المتدينين العمليين لو صح التدقيق، شغل التعليم عن أجرٍ زهيد في تجاهل تام لمنصبٍ حكومي مرموق أولاه ظهره، ونسب عريق أدبر عنهُ جبينه. فكان بذلك حامل شعلة أمة بأكملها، أذاقها معاني العلم والحكمة والاعتزاز حتى أصبحت ما هي عليه، بعد أن أمست حكمةُ أهاليها أسيرة الكلمات حبيسة السطور...

تبعا لمنصبه المعنوي وكذا جبروته الفكري، أصبح جليا لكل من الأخوين إضافة إلى جلاء ورغد، أن سراب القصر الكونفوشيوسي المنظور، لم يكن خيالا ناجما عن شهوة نفس ولا عن نزوة رغبة، وإنما كان تحديدا تجديدا تمثيليا مثاليا لقدرهِ الفكري على وجه

الخصوص. فوجب بموجب ذلك أن المصير المعني بعده قد ألزم كلا منهم بطلب سبيل التتلمذ تحت رعايته ولطفه، لينالوا بذلك مسعى مجيئهم و إقدامهم.

ما كان لكونفوشيوس ما هو أحب من الاستماع لرؤاهم والإنصات إلى آرائهم، طافت بهم جميعا سفن الفضول و هامت بهم بواخر الشراهة المعرفية، حتى تنازل كلٌّ عن مكنون عقله، و أوضح أبرز سماته و كل صفاته. فكان ذلك في محاورات مرتبة عنونتها مداخلاتهم وأسمتها مناظراتهم، و لو بقيت دائرة المنحى على تقفي خطى طاولتهم المستديرة، بل و لو بقيت حتى حبيسة النقاش واجبةً للبرهان لا تخلص إلى نتيجة...

خلال المناظرات جميعها، لم يكن النقاش الطابع الوحيد الغالب فيها، بل و عن نفسي أراهم جميعا غابرين ضائعين يحلون محلا دون محلهم و موطئا غير موطئهم، كل منهم يستوسد واقع نقاشهم فيسنده إلى واقعه المعيش، أو حتى إلى ماضيه لو صح التعبير. لم تكن أبدا مجرد مراجعات كلامية، و لا أي شكل من التلاسنات الواهية، و إنما كانت بمثابة الضماد أو الشفرة، تارة بمثابة المُواسي و

تارة بحلةٍ عزرائيلية. أعادت لكل منهم تفكيره إلى أصله، وأدرجته مشاهدا خارجيا موضوعيا من مشاهدي موقفه. استحبوا جميعا ما جمع حديثهم من بلاغة أسلوبهم و سلامة لسانهم، و لم يبرح مجلس الاستثناء إلا ضياء. فما حرك ساكنا و لا أسكن متحركا، بدا بشكل ما مراقبا خارجيا لا أثر لفعل يصدر منه، فما كان إلا كأيونٍ متفرج في مفاعلة كيميائية أو معادلة توازنية، لا يُحدث ثغرة و لا فراغا، إلا أنه كان دوما موجودا فوق كل استثناء. و ما اكتفى خلال المناظرات كلها إلا باطلاعه على جلاء وحده، يرتقب منه قوله و يرجو كلامه و حديثه، فكان جليا استكانه إلى ما يجهله غيره، أن في جلاء ما يفيده أو يضره، أنه غايته المثلى أو أنه مجرد ذرة قصوى. لم يتضح ما في باله أبدا، إلا أن الشيء الوحيد البادي الظاهر، أن عينه الثابتة المركزة على جلاء، قد كانت لسبب...

والأهم مما جمع حديثهم و ما مر على قولهم بإجماليته و كله، أنهم جميعا، و فضلا راجعا إلى تسلسل الحوار و يقظتهم الفكرية، قد أدركوا أخيرا بطريقة ما أو على أقل تقديرٍ نوعا ما ماهية الكتاب. أن فكرة السفر للماضي لم تكن فعليا مهمة الكتاب، و إنما كان عزلا

جماعيا طالهم عن رغبة منهم، أن الطقوس المجراة أواخرَ دقائق الرحلة الزمكانية، لم تكن تهييئا لالتحاقهم بصفوف الماضي تماما بقدر ما كانت استدعاء لأرواح معنية، أرواحا، اختارتها إرادة الكتاب ذاتها تبعا لنمط شخصيات و تفكير بل و كذا مراد زائريه...

بقدر ما امتد إدراكهم جميعا، بقدر ما انقشعت عنهم حلكة أوهام وظلمات تيه عانوا منها الأمرين، استمر الزمكان بالتشوه إلى أن ضغط بعد أن كان تجسيدا لروح مقاطعةٍ كاملة، إلى مجرد غرفة لا تتعدى رفاهيتها كراسٍ معدودات تراقِصُ طاولتها المستديرة، تحت ضوء خافت عرف عن قسمات لهب شموع حلت موقع شمس الغرفة و قمرها على حد سواء، و ما كان حظها من الشمس بقدر حظ القمر منها، فما كانت تحضى بأنوارِ إشعاعها إلا ساعة مُقاسةً معدودة، كأنما كانت وصفا دقيقا لحظ حياة المناظرين جميعا من التبرم و السعادة.

كلما تقدمت الأيام، كلما كانت خيوط الشمس تجد سبيلا أرخى و طريقا أعبد إلى جوف الغرفة و أركانها، و تحولت ساعتها الواحدة شيئا فشيئا إلى ساعة و دقيقة، ساعة و نصف، ساعتان إلا ربع، فبدا

التقدم الملحوظ بحلة من العشوائية، إلى أن أدركوا قسمات الشمس الاستدلالية، كونها انبلاجا لتقدم المعرفة و انفتاح أبوابها...

دوما ما بدا كل شيء طبيعيا، كل يقف جنديا حافظا لصفه راعيا لموقفه، إلى أن تحولت المناظرات المتتالية، إلى شكل من لمحات الحلقات اللانهائية. مهما تعددت المواضيع واختلفت الرؤى، كانت المناظرات بمثابة متاهة، متاهةً مستحيلة الحل بالغة التعقيد، إلا أنها لسبب ما كانت مكشوفة الحل معلومةَ المآل دوما. فكان بما يفترض بذلك أن يعنيه، أن تطبَّع جلاء و رغد بطبائع كونفوشيوس و انتحلا رأيه، و تأثر كونفوشيوس بنظر جلاء و مطابقته لرأي رغد فاتخذ موقفه... ذاك ما عنى بآخر المطاف، أن الهدف المرغوب و غاية المرام من الكتاب قد تحولا من هدف واضح إلى سلسلة لانهائية، ما كان دعوة صريحةً إلى حل نهائي بديل، إلى لمسة تُحل عقدةَ تكرار أفكار المحاورات الثنائية، إلى طرف ثالث يزيد فداحة الوضعية و تعقيدها، إلى أن يؤول الأمر ليتخذ معنى إعادة تشغيل أخلادهم و تجديد عهدهم بمخاضها من جديد، فيكون المحظوظ منهم من يبلغ بسلامٍ نقطة التوليد...

قد تنسلت بالفعلِ عن المحاورات السابقة مفاضل كثيرة، أذعنت كلَّ محاورٍ لواقعه و أرغمت أنفه لمُصالحة كبواته و أخطائه، ففطن جلاء لما شغفه من حبٍّ قد كبته طويلا تجاه رغد، و أدركت كونها ما أحبت في جلاء إسلامه وحده و إنما إلحاحه المطلق في التعلق بخصائصه و أشيائه، و الأبلغ من كل ما سلف و الأبعد انتظارا و توقعا، مراجعة كونفوشيوسَ نفسَه، و مراجعته لما طالها من عملية مفرطة ربطته بماضيه فأنسته حاضره، كبلته بمستقبل عرقه فأنسته نسله و مُخصِبتَه...

على وقع كل ما سرى عهده، جذر بالكتاب أن يضع نهاية لحدِّه فيبلغ آخرَ فصله، فلانهائية طباعِ ساكني غرفته و متقعدي طاولته و لو كانت ممتعةً للرؤية ولودة خصبة للأفكار، إلا أنها تقيد سيرَ الكتاب نفسه و تحكم عليه بالبقاء أمَدَ ما بقوا، في حين أن طابعه الإرادةُ و سِمته الحرية. سيرا على نهج إرادة الكتاب في توقيع نهايته و ختام فصله، أتمَّ لِطاولته المستديرةِ متقعديها، فكانَ إلى جانب أخلاقية كونفوشيوس، علم عمران ابن خلدون و تدين ابن طفيل، أخلاقية ابن مسكويه و عدمية "؟" نيتشه؛ كل تصفه

مؤلفاته، اقتباساته، رسالاته، شذراته و مخلفات آرائه و حكمه... تعددت المناظرات بينهم جميعا، وبقدر ما باعدهم الزمان ولاصقهم الكتاب، آلفتهم الفلسفة حتى اعتدلت مسافاتهم، وأدرك كل منهم ما قد يكون عليه جوهر الفيلسوف الحقيقي والعالم العارف بذاته الملم بشأنه. ومن بين كل ما مر من مناظرات، لم تتربع منها عرش الحسم وجبروت القطع والصلابة، إلا ثلاث مناظرات أساسية، عرَّت عن واقع الحياة الإنسانية وأوضحت الإنسان كأغمض كائن وأخفى كيانٍ على ما هو عليه، فما كان تصويرها ولا عنونتها ليبدو بشكلٍ أبلغ أو أجمع تلخيصا مما سميت به:

المناظرة الأولى : الأسانية ـ إنسانية أنانية، إرادة القوة في تقوية الحلقة أم صقل السلسلة

المناظرة الثانية : مراهنة الأخلاقيات الاجتماعية، من صنيع الأقوياء أم من خلق الضعفاء، أم مجرد أعذارٍ واهية

المناظرة الثالثة : خلود مرغوبٌ في سائر الأحوال، إسما في جحيم أو روحا في نعيم.

الفصل الثالث :

متاع الإرادة، خلاص مفكر أم فراسة مؤمن

ـ تجسيد الاحتمالات تحت وطأة الحقائق الكونية

الأسانية ـ إنسانية أنانية، إرادة القوة في تقوية الحلقة أم صقل السلسلة

المناظرة الأولى : الأسانية ـ إنسانية أنانية، إرادة القوة في تقوية الحلقة أم صقل السلسلة

جمع الفكر أبناء الطاولة المستديرة، عَقَلَهم شغفهم و غللتهم استناراتهم، حتى أغفلوا حاجة الطعام و الشراب ففطنوا لمتاهةِ الغرفةِ النفسية، لتلاعباتها و لما لمحته من أمارات استدلالية. كل ما تبصره عين الرائي فيها لا يعدو انطباعاته الخاصةَ و ظنونه الشخصية، هي النعيم الأجمل و المدرب الأكمل للروح في زهدها و تعقلها و خبو شهواتها. على رغم تعدد ملامح الغرفةِ وإشاراتها، إلا أنها باختزال رِسالتها، كونٌ معزولٌ لا حاجةَ فيه لأمرئ ولا شهوة عدا ما يعتقد بحسبانِ ضرورته ويصبو إليه، أي أنها جليا موطِنُ الإرادة، فيها وبها وحدها قد يفطِن المرء لرغباته الحقة. فكانت الرغبة الجامعة للمفكرينَ المجتمعين جميعا، أَمَةً للمعرفة مطيعةً للعلم تبتغيه دون سواه. أمامها انحنت رقبة كل النزوات

و زلت عنها كل الشهوات، فلا مطعم و لا مسقى و لا جنس و لا حب تقدير، و كل ما غمر الواحد منهم، إرادة بحتة للمعرِفة أكثر، ما يعني شراهةً مطلقةً قابلةً ـ لو صحَّ افتراضي بشكل ما ـ لإيقاظ قوى مفتاحِ الدماء و خروجه عن حياديته و انعزاله...

خلال المناظرة الأولى، اختلفت الآراء و تعددت الرؤى، إلا أن الكفة كانت بشكلٍ ما دائمة الميلِ لكفة نيتشه عمن سواه، لا بد أن طموحه الغريزي قد غدا مكتسبا بعد أن تعدى حدوده، فاستجابت الغرفة لتلقائيته و صرامة فكره و جماله...

كونفوشيوس : طوال مناظرتنا قد صادفت أمرا يؤرقني منذ فترة، و لا أجد سبيلا لاستكمال الحديث دون تعرية أصله و الاطلاع على أمره، أيناسبك الحظي بوقت مستقطع تشبع به فضولي لو شئت ؟

جلاء : دون شك ما عساه قد يؤرق سيادتك إلى هذا الحد من التشويش !

كونفوشيوس : قد تجد في الأمر ريحا من الغرابة أو نسمة من ضعف الإدراك، إلا أنني أجد مداخلاتك و من جاد على مجلسنا

بحضوره و سلامة رأيه و قوامته من المفكرين، مختلفة بشكل ما عن مداخلات رغد... هذا لا ينفي تميزها بطابع فكرها الخاص أيضا، إلا أنكم تسلكون سبيلا أكثر انحناء من الطرق المتعارف عليها للحديث، و لو شئت وصفها لقلت ربما أنها بمثابة ريح تعكس تيار دوامتها آخر لحظة، لينقلب فيها حرفيا من كان معارضا إلى مؤيد و من كان همه النفي إلى من يشغله التأكيد، أجد الأمر بليغا ببساطة، و لن أتعجب لو كان شطرا من الفنون أو قبسا من العلوم، فليس بالأمر الهين حقا لو سئلت...

بقدر ما بدت على المفكرين الأربعة آيات العلم و مفاتيح المعرفة بسؤله و طلبه، إلا أنهم بدوا معجبين كامل الإعجاب بملاحظة كونفوشيوس و تنبهه لاختلاف كل خطابٍ عن ما عداه. استشارة من أذنه و طلبا من حس فكره، استطاع اختزال قرابة المائة عاما بعده، و التوصل لتباين الآراء و اختلاف صِلات الخطاب و نهجه مما سمع، ذاك ليس أمرا يقدر عليه إلا ذو أهلية بين الخواص و العامة...

ارتأى جلاء أنه مهما بلغ سداد رأيه و مهما تَذَرْوت و تعالت

جواهر فكره و مكنوناتها، فلا زال أمامه ما يجهله، و لا زال يستبقه ما لا يعلمه؛ أنه مهما كَمُلَ كِيانه و صُقِلَ شخصه، كلما أدرك أن هنالك في ركنٍ ما، في بعدٍ ما بل و في زمنٍ ما، من يتجاوزه و يستظهره، يدبر عنه و يستصغره...

أدرك لا محالة ما يكون العلمُ عليه، وما تعنيه نهائيته ومفارقته... قدر العلم الَّذي احتواه ربما كان متجاوزا للحدِّ المطلوب من طالبٍ جامعي، إلا أنه لم يكن أهلا للمقارنة حتى بأبسط فكرة لمن جالسهم وناظَرهم على طاولة الغرفة المرآوية. و المثال البسيط الظاهر الفاضح لحقيقةِ ذلك، لم يكن إلا تشكيلَ كراسيهم المتمايزة، فاكتسى كل منها طابعا خاصا أحاطها بِزُخرفه ؛ فتَقعَّد نيتشه عرشا ما كنتُ لأُدنيه عن منزلةِ عرش ملكة سبأ، و لا أن أحتقرَ منه حقانية تزايد جن سليمان للحظي و الظفر به ؛ فكان بذلك تجسيدا مطلقا لحقيقة مثاليته المطلقة، لمثاليته بالشكل الذي رآه و الذي يُرى به من قبل كل من سمع عنه و أصغى له من أهل مجلسه ، تجسيدا لجملة تعجرفه الشهيرة : " أستطيع أن أقول في جملة ما يستطيع آخرون قوله في كتاب، أو ما لا يستطيع آخرون قوله في كتاب ". بينما

تفرد ابن خلدون و ابن طفيل بطبع كرسييهما عن غيرهما، فتشكل كرسياهما على نفس المرآى عينه و التشكيل ذاته، و لو طابقا من ذهني شيئا مما أذكره فما كانت إلا أرائك خضرا استبقت شيئا من ريح الجنان و طيبها و من تدينهما و سِمته فسبغت بذلك منابتَ فكرهما و مبتغياتِ مجلسهما.

في حين تفرد كونفوشيوس بمقعده عن غيره على نهج ما يتوقعه منه كل معاصرٍ له و دارسٍ لتعاليمه، فكان عرشه مقعدا فاقعَ الصفرة بما حدث بذهبيته، و متداعيا بما يكفي ليُدعى تجسيدا للماضي ذاته، متداعيا بما يأهله للسقوط، و ثابتا بما يكفيه للتماسك و الوقوف...

كل ما سَلفَ من وصفٍ دقيق للكراسي قد كان كل ما يشغل ذهن جلاء من كل ما يراه... " كيف عسى كراسيهم تكون على هذا القدر من البديع و التماسك في ظل غرفةٍ، يفترض أنها معكَسُ الأنفسِ الداخلية بصفاتها الكلية؟ عموما ذلك ما أكسبها مسمى الغرفة المرآوية، لكن، أن أختلف عن غيري بهذا القدر من الاعتيادية، بل و حتى بهذا القدر من السلبية. أن أختلف عمن

سبقني من كبراء الفلاسفة بهذا الشكل من تعميم الشمولية، فلا بد أن عشرينيتي الفائتة لم تكن سوى مضيعةَ وقت مثالية، هذا نظَرا لمدى قبح كرسيي وكمال حظه من البساطة والاعتيادية "

معلوم حتما أن جلاء قد كان قاسيا بشكل مفرط على نفسه، أن تقارع كُتَّابَ التاريخ و بنائي أمصاره و أسفاره في سنواتك العشرينية، فما أرى نعت الاعتيادية إلا إطراءً مغدقا غير مسبوق. إنه حتما لمن الوقاحة حتى تخيل المرء لتجاوز حاجز هؤلاء ما داموا جميعا بالفعل قد تجاوزوا حاجز الإنسانية، ما داموا قد رسموا خط الزمن بثبات وجمال و تمهيد يسمو بغلوٍ عن ضعف هالة ووضاعة قدر مصطلح الإنسانية. المصطلح الأقرن بالخطيئة الأولى والأخيرة، بضعف النفس بين رغبة الروح و طابعِ الشهوانية...

بعد لحظات الانبهار الفارطة، علا عرش كونفوشيوس بقدر طفيف أعلى رقاب مناظريه، فكان ذلك تحديثا كاملَ الوضوح بما جال بخاطر كل من راجَعه الكلام وسار وإياه في مضمار رؤاه وأحاديثه. وفي ثوان معدودة، عاد الخطاب لاتخاذ صراطه المرغوب، وانطلق ابن خلدون قائلا:

ابن خلدون : أنانية الإنسان طبيعة خلقية، و ما كانت كفتها لتميل للخيرية و لا لقسمات الشرانية. ما الإنسان بقائد أمره و لا بممسكٍ زِمامَه، كلٌّ تطبعه نفسه بما شاءته من سوء تحت خَتْم قرينه. والكل يسعى لنفس المرأى وذات الحاجة والرغبة، كلٌّ يطمح للسعادة، أكان مؤمنا أو كافرا، عاقلا أو مجنونا، شيخا أو صبيا. لا فرق يتخلل رغباتنا أبدا، وقد يعني ذلك إيقاعَنا في قالَبِ التسيير عن التخيير، إلا أني أراه معنى تائها عن محله. قد تكون لأنفسنا بالفعل آثارٌ دفعية مغوية، إلا أن قدرة الكبح فينا فطرة سليمة و غريزة محفوظة، و بقدر ما حُفظت شهواتنا و نزواتنا و بما تتضمنه من الأنانية ـ بقدر ما فينا من الطهر و الاطمئنان و المهارات الكبحية ؛ و بقدر ما ترتبط نزواتنا بانتزاع نزوات الآخرين لمحدودية عطاء الطبيعة و نهائية خصوبتها، إلا أن سعادتنا نفسها مقرونةٌ بسعادةِ من حولنا، و مَيْلُنا لمكافَأة المعطاءِ هو بقدر ميلنا لمعاقبة الناهب. لذا فلست أرى أنانية الإنسانِ في ابتغاء ما يسعى إليه شرا و سوء نية، كما أراهُ حب ذاتٍ يضمن بقاء كل فردٍ و حمايته لنفسه. و نظرا لما يكونه نفع المرء لمجتمعه، يتحدد القدر المكافئ لأنانيته مساواةً

لنفعه، مما يضمن بقاء المجتمع على ذروته و استمرار تطوره، فكان بناءً على ذلك لزاماً تطور العمران العام انطلاقا من أنانية شخصية يضمرها أحدُ أرفع أهالي المجتمع و مترئسي عُليا مكاناته...

ابن طفيل: ألا تكون بذلك، مُقَيِّما لحياة المرء واستحقاق بقائه بقدر نفعه لنفسه ومجتمعه!

ابن خلدون : بل مُقَيِّما لضرورة بقاءِ الأنفع استنادا لمساهمته و وسع قدرته، و ما كنت لأعارض بقاءَ البؤساء، إلا أنني أرى في بقاء الأقوياء من أهالي العلم و الحكمة و بسطة الجسم و الغنى دحرا للأسى عينه، فلا يتخلل العمرانَ إلا قوي يحفظ البائسَ حتى يسعد و الفقير حتى يغنى و الضعيف حتى يقوى...

ابن طفيل : ذاك أساس الإسلام عينه، في ذلك رُوي عنه صلى الله عليه و سلم قوله: " اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، و من يستعفف يعفه الله، ومن يستغنِ يغنه الله"، و " المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ". فمني أقول أن المنظور الإسلامي لا محالة بصفك مؤيدٌ

قولك داعمٌ لما تعتقده، و بذلك أنا على صفك و نهجك...

عَلِم كونفوشيوس مقدار الحكمة الذي تلا عهده، و أن بعده، من حمل مشعل العلم و المعرفة على نفس نهج الأخلاقية، بل و ظن بما تلاه أعظم مما قدَّمَه، لما سمعه من شموليته السياسية و الأخلاقية و المعاملاتية و كذا النفسية .

لم يحب يوما أن يسمى نبيا و لا أن تدعى فلسفته بدين، و لكن شيئا بداخله الآن، يعلمه أن الحماس الذي يغمر عيني ابن طفيل و ابن خلدون، ليس بريقا تحدثه كلمات اعتيادية، فلا بد أن صاحبها قد كان ككلماته، فوق لفظ الإنسان و تسمية البشر...

نيتشه : لا أنكر ما تقدمتما به، و لست أناقض مما قلتماه أي رؤية. إلا أنني أراكما مستهدفَيْنِ لصلاح مجتمع بأكمله تحت مسمى ما دعوته بالعمران، و هذا ما أجده مناقضا لمفهوم الأنانية عينه. ربما قد يصادف أن تخدم مصالحي المشبعة مصالحَ أخرى على وجه الصدفة، لكن، أن تتطور الصدفة و تتعاقب إلى أن يتنسل عنها فَلاح عمومي و انتصار جماعي، فأخشى أن الأمر قد تحول واقعيا لخطة محكمة تخدم الصالح العام و لا تقتصر على إشباعِ الكيان الخاص، و هذا ما

يتعارض مع مفاهيم الأنانية و الغريزة التي تطرقت لها سابقا، مع التغاضي عن مسألة ارتباط السعادة الفردية بسعادة أفرادِ المحيطَين الداخلي و الخارجي للإنسان المعني لكوني لا أوافقُ مسارها كليا...

كونفوشيوس : أتفهم معارضتك للسير النمطي للسيد ابن خلدون، لكنني أرى مسألة تعاقب الصدفة بما يَسَع سد شراهة كل إنسان أمرا ممكنا، ما دام التكوين الكوني لمظهر الوجود و مكنوناته بهاته الدقة من الالتئام و التناسق. و أزيدك من القول غيره، أن طابع الخير أصلٌ ملازمٌ لصفة الإنسانية، و الكل مبتغي الخيرِ أكان لنفسه أم لغيره، و لست أرى في باطِن النفس الإنسانية ما قد يقودها لمبتغى فناء الغير و إيذائه مع بقاء الأنا. و بافتراض خطئ ذلك، فما تداعب النفس الإنسانية كل مرادٍ لها و جميع أمانيها و تنال إشباعها منها حتى ينقلب نعيمها إلى جحيم، و تلك نتيجة معلومة لسبب لا يمكن استيفاؤه قط، ذلك أن تحقيق الرغبات منوطٌ بنهبها، و نهب ابتسامات الآخرين معها. فكان أمرا محسوما أن النفس إما أن يغلب إيثارها عن شهوانيتها فتُوفى جائعة راضية مرضية، وإما أن تؤخذ متخمة حزينة وحيدة. و أدرك كوننا جميعا نميل لكفة النفس

الجائعة عن المتخمة. تلك هي فطرة الحب فينا...

تراجع نيتشه لوهلة متبينا مكامن الصحة و زوايا الخلل مما تقدم به كل من الفلاسفة المناظرين الثلاثة، فلم يعد يرى إلا أن كلا منهم ذائد عن موقفه مبارزا بحدِّ سيف معتقده، و المنطق لا يحدثه إلا باتباع سيرِهِم في ما يذودون عنه، مبديا ما يعتقد به حتى يكون ترسا له عن سيوفِ ردودهم و درعا حاميا من حدتها (أو كذلك رآها على الأقل).

نيتشه : إن السبب خالق النتيجة، و إن السعي أسير المسعى و رهين المبتغى. فما كنتم محدثين به، لا شك أن في صَداهُ ما يحدثني بصحته، إلا أن نجاعته لا تتعدى عوالمكم الخاصة، و لو نظر لكوننا كما أراه و لو أبصرت أرضنا كيفما أبصرها، لما كان لمعاني الحب و اشتراك الحنية و اللطف و السعادة أي معنى... البادي من قولك يا كونفوشيوس رضاك عما تكونه النفس الإنسانية و الفطرة البدائية، أما عنكما ـ مشيرا إلى ابن طفيل و ابن خلدون ـ، فعقيدتكما الإسلام كشريعة سماوية، و المرجح أن كل ما قد تخوضان فيه عبدُ تأثير دينكما مِطواعٌ له، لذا فتخوفكما من جحيم موعود كل ما يؤرقكما.

أما عني، فلست أعتقد خيرا بصيغتي البدئية، و لست مؤمنا قط بأي حياة أخروية، و ترجيحي كوننا أسيروا....

و قبل أن يتم نيتشه كلامه، حتى قاطعه جلاء في حماس قائلا :

جلاء : أسيروا حلقة لا نهائية، أسيروا حياة لا تفنى و خلود لا يموت، أسيروا عود أبدي وتكرار بلا أجل معلوم، أليس كذلك !

نيتشه : هو كذلك، فما أدراك ؟

جلاء : طالما حدثتك من خلال مطالعة كتبك و مؤلفاتك، و إن إنجيلَك الخامس أو لسان زراداشت أو أيا كان، قد كان لي أعظم حافز أَهَّبَ خلدي للقياك و حفزه لمناقشتك في كل مزاعمك، و ها أنا الآن فهل لي بهاته اللحظة أغتنم منها حظ الصدفة !

نيتشه : قرأتَ كتبي يقينا، إلا أنك لا شك لم تتعلم بعد تشذير كلامك ! على كل، لا بد أن بخاطرك ما تود قوله عن نظرية العود الأبدي، فَبُح بما تعتقده !

جلاء : فكرة العود الأبدي فكرة فعالة كدفع لتشكيل هندسة أفعال تابعيها و تقليب اختياراتهم على هواها. فبالتالي، مجرد فكرة

أن تعيش يوم غد ما تعيشه اليوم لن تقودك إلا لأن تعيش أحوال يومك بأخير إيهابٍ قد يكتسيه حتى تضمن بقاء نعمتك، و اختيار المرء أن يمضي يومه المُعادَ في نِقمة سوء الاختيار أفظع حتى من قرار الانتحار ذاته، لا سيما أن النظرية التي أعدت طرحها ليست رهينة يومٍ واحد و إنما مجازفةَ حياةٍ بأكملها، و بقدر ما قد يكون أمدُ الحياة طويلا بما يكفي ليسنح بفرص متكررة، بقدر ما قد يكون جحيما مطلقا مُعادا سرمديا لما غطته أوانَ حياته الأولى لعنةُ الإغفال و الحيود عن التطور و التغيير... و لو كان في دفاعك سيدي حديثك عن إنسان أعلى أو ما سواه، فلست أرى ذلك في قمة الإتقان حقا، و أن فيه من الثغرات ما يكفي لإخفاء شمولية النظرية، أولها أن كيان الإنسان الأعلى نسخة مثالية، و بإلقاء نظرة سطحية على الطبيعة الإنسانية، فيبدو جليا أن خلقَ الإنسان لا يتوافق أبدا و مفهوم الاستقرار، بل و وجود الإنسان ذاته مرادف مباشر لمعاني التغيير. لذا و بافتراض إمكانية وصول الإنسان لما يؤهله لعبقرية الإنسان الأعلى، فلن تَسَعَ قدرته بقاءه على حاله من صِغر مهده إلى ضيق لحده، و المقصود بالتغيير التأرجح بين المتنافيات الكلية،

كالصدق و الكذب و الخير و الشر و الوفاء و الخذلان و ما يعدوها مما يشابهها، فإذا و بكل عالم مواز، و فوق أرض أي كون من الأكوان كانَ من كان أي كائن، فالعود الأبدي لن يكون إلا جحيما مطلقا لكل إنسان، و ربما التمرغ في الشهوات و الانبساط بها أصحُّ سبيلا بقانون التكرار اللانهائي ما دام الإنسان مجابِها المصيرِ ذاته لمدى السرمدية، و لن يكون للزهد و العفاف و التطور و التقوي أي معنى، ما دمت سأقضي قرابة السبعين عاما في محاولة بلوغ الإنسان الأعلى، و الذي يرجح ألا أبلغه بنهاية المطاف، حتى أعيد كرة المحاولة بكل حياة ثانية من جديد... من كل الزوايا، لا أجد وصفا لهذا أكملَ من الجحيم...

نيتشه: وما يمنع الإنسان عن الإنسان الأعلى ما دام لفظ الإنسان بما يحمله من معان رفيقا له لا يفارقه. ما تمتع الآدمي برغبة إلا و هو مستطيع سبيلها، آآمن بذلك أم لم يؤمن، أتحمل واجبه أم اعتذر، ما دامت كف الإنسان تلمس سبل الاستطاعة، وجب عليها ما تستطيع. ربما منظورك في استحالة الكمال عمن كان تجسيدا للضعف و النقصان صحيح، إلا أن صحته لا تتجاوز عالم الأخلاقية، و ما إن

يشاء الإنسان أن يخترق عباب ذاته و يسبر أغوارها حتى يجد ضالة الكمال من نفسه. قد يتطلب علو الإنسان تقديم بضعة قرابين، إلا أن الدماء المُراقة لا تساوي الدماء المحصنة المحفوظةَ و لو بعد مائة ألف عام، قد يجد الإنسان نفسه بين اختيار النفس أو الغير، بين الشهوة أو الضمير، بين النزوة أو الأخلاق، إلا أنني في كل كرة لا أرى الحسن و التمام إلا في "قتل الإله". وحده "موت الإله" يجعل الإنسان إنسانا، وحده ما قد يهبنا نعمة الاختيار، وحده ما قد يفك قيدي وقيدك لنغدو أقوى، لنسمو بالأرض ونعلي العالم، لنجعل أزهار الكرز وخضرة الأرض ذات قيمة. وحده العالم الذي أقطف فيه ما شئت من الزهور لاستنشاق طيبها واستدعاء عبيرها يكونُ العالمَ الأمثل، عالم أخشى فيه اقتطاف زهرة مقابل عقاب، ليس العالم المثالي الذي أصبو إليه. ما دمتُ محجوزا، ما دمتَ مقيدا، ما دمتم مغلولين، فلا معنى لحيواتنا أبدا، فما عساها تكون الغايةُ الأسمى من حياة رهبة وعيش زهد قد يطفو ذنبُ خاتِمته فيهدم كل ما استبقه من حب وولع وتطلع واشتياق. بقدر ما أعدت قولي هذا من كرة، إلا أنني في مختلف العوالم و مهما كانت احتمالاتها،

أختار دوما أن أكون إنسانا، أن أكون لنفسي قائدا بلا لجام، أن أكون حُرًّا...

ابن خلدون: بالرجوع لمعنى الحرية، مفردٌ بهذا الثقل يحتمل من المعاني ما لا يحصى ومن الإحالات ما لا يعد، فما عسى سبابة لسانك تشير إليه بالتلفظ به!

نيتشه: حصر الحرية في كلمات أمرٌ محال، والحرية ذاتها ليست مفهوما محدودا، وإنما إيهابٌ تعرفُ بشرته شتى الألوان اطِّباعا بكل إنسان. لكن لو وجب حصرها في كلمات معدودات لقلت أنها حق الملكية و قدرة الحياة، حق ملكية السبيل و المسار و الاختيار، و قدرة العيش بمدى اتساع و رحابة الحياة، حيث لا غلَّ و لا حد و لا قيد...

ابن خلذون : بافتراض تعريفك هذا، و بإعادة الكرة مرة ثانية، ألا يقضي قولك أن للإنسان ملكية الاختيار، ملكية السبيل و المسار!

نيتشه : بلى، و أنا على قولي ثابت الرسوخ !

ابن خلدون : ألا تكون بذلك في قمة التعارض و التناقض و العداء إزاء كل إنسان، ألا تكون قد أحدثت بذلك فجوة الوهم بثغر الحقيقة !

نيتشه : و كيف ذلك و أنا بطل التحرير، كيف و أنا الداعي للتغيير، لِفَكِّ القيد و اتخاذ غير ما كنا عليه من مصير !

ابن خلدون : أما عن فك القيد فأراك على عهدك و أنا عند وعدك، و أما عما بعدَ الفكِّ و الفطام فذاك ما يؤرقني. قدرةُ الإنسان على الاختيار رهينةٌ به راجعةٌ إليه، هذا ما دام افتراض صحة نظريتك في إطلاق الحرية قائما. فكيف يكون لي أو لك اتباع هذا المصير بعد العفو عن سراحه و سراح أهله ؟ بأي حق عساي أدفع هذا و أخبر ذاك و أدعو هؤلاء ليكونوا ما ليسوا عليه، ما لم يكونوه و ما لن يكونوه أبدا...

نيتشه : و أين ترانا ندفع أحرارَ أسرِ السماويات و الأخلاقيات في ما قلته، ألم يصلوا أمدَ التحرير بالفعل...

ابن خلدون : إن مفهوم الإنسان الأعلى و انغماسه بسنن "موت

الإله" و العود الأبدي قيد في حد ذاته، بل قيدٌ أسمك بكثير من الذي سبقه، فربما كانت القيود البدئية إحالة إلى حياة مسبِّبة تقود إلى نتيجة محسومة أبدية، و ربما دقيقُ الأمور و النموذج الذري منها عينه قابل للمحاكاة و الإصلاح، إلا أن فكرة دائرية الزمن تحت مسمى العود الأبدي و أكذوبة استقامية الزمن، جريمة في تخيير الإنسان، و الأفظع إجراما منه إيهامه بالحرية، بينما كل ما يقبع بين راحتي كفيه، اضطرار مطلق لمصالحة الزمن و مسايرة تياراته. كل ما حدث سيحدث في حياة أخرى، و كل ما يحدث سيعيد كَرَّتَهُ مرةً ثانية و كل ما سيحدث ناسخٌ نفسه إلى شساعة اللانهائية... أين الحرية في ذلك، كيف بإمكان فردٍ بائس تحركه عجلة الزمن أن يتفوه بمصطلح الحرية، كيف بمن لا يملك زمام أمره أن يطالَبَ بالتغيير، بل من الأساس كيف تكون صغرى التفاصيل و أحقرها موجَبةً للخضوع محرومةً منهوبةَ التغيير، و رغما عن أنف الزمن، أن تطال قدرة الإنسان تغيير مجرى الزمن إلى إنسانٍ بلغ المستوى الأخير. موجزُ قولي أنه لا حرية للمطالَبِ بالتغيير، لا حرية لمن تحكمه دائرة الزمن، بل و لا سبيل للتغيير ما دام الإنسان أسيرَ

مصيدةٍ خالدة لا تنتهي...

نيتشه كمفكر، كفيلسوف متدبر، وجد في ما قاله ابن خلدون من الصحة القدر الكثير و من النجاعة الأثر الوفير. تفَطَّن لما كانت عليه دعوة التحرير، و لما زامنها من تناقض بمطالبة التغيير، و كل ما أحالهما معا للاستحالة تحت نمط دائرة الزمن و عود الأحداث بمجرياتها. هنا ربما أدرك أن في رأيه مَلبَس غُموضٍ من ثوبٍ سديم، بل و ربما المَطلبُ الواحد منه في قول له مُعارِضٌ نظيره بين ثنيات أخرى أحاديثه. كل ما عاد يشغل باله الآن استفاقته و صحوته على قدر تناقضه و معارضته لتطلعات ذاته و نظراته لمستقبل مستحيل بدا من قالبه الخارجي ممكنا...

قبل أن يتنبه أي الحاضرين لذلك، كان جلاء أول المرتقبين. إيقاف نيتشه ودفعه لإعادة تدبير أفكاره وفحصها لم يكن بالفكرة السديدة أبدا. وبقدر ما كانت خطوة للأمام، بقدر ما كانت خطوة مشؤومة توقظ نَهَمَ مفتاح الدماء. في ثواني صمت مرت بين عزف أوركسترا الترقب والصمود؛ صاح نيتشه وضياء بأعلى صوتٍ مر على تاريخ نشأة غرفةِ الإرادة، وما هي إلا لحظات حتى استنشق

المفتاح هويته من المصابَين، وقد اختلط لعابهما بكمٍّ يفوقه من الدماء. هي لحظة تألق المفتاح، هنيهة طبعتها الرهبة والسكوت، ثوانٍ سكنَ بها كل كائنٍ حي، ولم يبدُ واثقا إلا مفتاح الدماء، باديا ما لا يفترض أن يبدو عليه كائنا ما لم ينبغ أن يكون، كان شيئا مفعما بالحياة...

شيئا فشيئا، عانق مفهوم الحياة، واستمر بالتضخم بينما تزخر جوانبه بما قد يخلق روحا من قطرات الدماء. لعل نيتشه قد عانى صدمة وافرة من التشنجات والآلام، إلا أن ضياء قد بدا أطبق فمًا وأشحب وجها وأفحم عينا منه بكثير. ربما وسعت قدرته أن يخفي ذلك عن جلاء لزمن طويلا كان أم قصيرا، إلا أن أخاه قد كان بمثل عبقريته لحد بعيد، وقد شرعت نقاط استفهام خلذه في الترابط. ربما الآن يفهم سبب استمرار آلام ضياء، موازاتُها للخطوات الجريئة بالأحاديث و الكفيلة بتغيير مسارات الأفكار ـ و التي بات معلوما كونها ليست محظ صدفة على وجه الإطلاق و التأكيد ـ، بل و نهبُ ضياء لمفتاح الدماء و الذي لم يفطن فعليا لحدوثه إلى حد الساعة. لا بد أن جلاء قد فاته الكثير، إلا أنه لسبب ما يشعر أنه لم يعد بالدور

الأخير، بشكل ما أصبح قادرا على رؤية قُرب الخلاص، بدايةَ نهاية انتقام سال لعابه فِداه منذ أمدٍ بعيد، وها هو الآن مَفعول عَنه دون مصافحةِ أكفه لحمرةِ الدماء...

بعد معاناة دامت لساعات، خلصت معاناة نيتشه أخيرا إلا أنه بدا أقرب للموت من الحياة، بَيْدَ أن ملامح جسده و هالةَ الخلود المصاحبة لها قد فارقته ليعودَ إنسانا من جديد، إنسانا لا يحظى برحمة غرفة و لا باعتراف كرسي على وجه التحديد، و على مِثالِ كربه و نهجه كان ضياء تحت وطأة الضرورة و التأكيد، بل و كان أموَت منه حياةً و أفقَد روحا و أعجز عنهم جميعا للحديث...

ضياء: أخشى أنه ما عاد للكتاب وقت وفير للبقاء، وإنا لملاقوا المصير نفسه والملتقى ذاته. قلبوا فكركم بين أيديكم وضعوا صفحات ظنونكم على قلوب الإيمان وألسن الاعتقاد. قد مر بنا وقت طويل لا مجال للتراجع عنه ولا لغض أبصارنا منه. قد غدونا جميعا أقوى مما كنا يوما عليه، أعلم من أي وقت سبق و أسلم من أي عهدٍ مضى. طاولتنا هذه، كراسينا هاته، ما هي بجلسة سهر ولا بموضع احتفال، وإنما هي معاشرة الزمان للمكان، حتى يتنسل

عنهما حاكِمٌ جديد. عهدٌ جديد يُثقف الزمان بما يُزهر المكان، ويعلي المكان بما يرسم وردية الزمان. قدِّر بعلمنا الآن ما قد يكونه الإنسان، و الباقي اختيار مرغوب يرسم خط الطالع و مسار القدر بما كان معلوما من قبل ليتجلى من جديد. رفضُ الغرفة لمفاهيم الإنسان الأعلى و العود الأبدي بما تضمنه من مجازفات دعوةِ "موت الإله"، و تبشيرها إيانا أننا على الطريق الصحيح بما أشارته علينا مما حل بي و بالسيد نيتشه على حد سواء، و بما رافق ذلك من تضخم مفتاح الدماء و اتخاذه دمائنا و أرواحنا كغذاء ؛ يعني أمرا واحدا دون سواه، أن لانهائية الاحتمالات قد تقلصت بما يختزلها في ثلاث نقاط :

١ ـ أولها أن رفض مبدأ الإنسان الأعلى رفضٌ لمجال التسامي عن صفة النقص الإنساني وتكذيبٌ للكمال، لذا لا نزوه ولا كمال لإنسان.

٢ ـ ثانيها أن رفض العود الأبدي دحضٌ لمبدأ دائرة الزمان بما احتوته من معاني الاضطرار والتسيير، وخلوها من احتمالات الإرادة والتخيير، لذا بات معلوما أن للحياة كرَّةٌ واحدة، للإنسان

فيها كل طواعية الفيزيقيا وقدرة الاختيار...

٣ ـ ثالثا ودون أي حاجة لأية إحالة، رفض "موت الإله" دليل جزمي على تضييق الغرفة لمسار الحديث حول دائرة الاعتقاد و سبل الأخلاق، نفي "موت الإله" دليل قطعي على وجوب الاقتران بمسلمات إلهيات الأخلاق، لذا للإنسان حرية الخضوع أو الحياد، لكن لا مجال لدحض الوجود الإلهي و لا لما فرضه من سنن كونية منظمة لكونه بما يشمله من خلقه...

الثبات البادي على ضياء لم يكن قوةً صنيعةَ اللحظة، ولا قرارا ناجمَ الساعة، و إنما بدا أقرب لما يكونه الممتحن الذي تُسرب إليه الأجوبة مسبقا دون سواه، و ما فصله عن صفته إلا أن ثمن التسريب كان من فئة نقد تبرمِه و أوراق معاناتِه.

مراهنة الأخلاقيات الاجتماعية، من صنيع الأقوياء أم من خلق الضعفاء، أم مجرد أعذارٍ واهية

أمسى معلوما لكل من شغل مقعدُه غرفة الآلام، أن الحوارَ المظنون به حوارا حرا قد كان محاطا بسياج الحق وأسوار الواقع، وكلُّ باطلٍ يطالُ آذان الغرفة، ما تنجم عنه إلا آلامٌ وتشنجات تضحي بدماء المخطئِ وراعي الكتاب لإشباع نهم مفتاح الدماء... أصبح الحق معلوما متخِذَ جانب الإلهيات فأضحى محورا لمكنوناتها وتجسيدها وهيآتها...

رغد: سأتولى رعاية ضياء ونيتشه، لا تتوانوا عما كنتم بصدد الخوض فيه، حتما ثمة أحاديث تشغل أذهانكم بما يكفي لترغبوا فيها قبل أن يُطْلبَ وجودُنا بأسفلِ أرضٍ أو بأسمى عُلا...

ضياء : قد نبدوا قابلَيْن للتعافي بمنظورنا الدنيوي و معرفتنا المُسبقة، إلا أننا قد اقتحمنا بالفعل حدود و ترابَ بُعدٍ مغاير كليا

للبعد المألوف سابقا. للغرفة إرادتان خاصتان مكفولتان من لَدُنهَا، هما إرادتها الخاصة و جشع مفتاح الدماء، و كل ما عداهما ليس إلا محل تدقيق إما أن يوافق إرادتها الفعلية فيُنزَل لِشهادةِ عين الواقع، و إما أن تُرفض فتبقى على أمدها و حدود قمعها مجرد فكرة مسكوتٍ عنها مَكبوتَة... لذا لا مجال لتعافينا ما دامت قد قررت بالفعل عقابنا بطريقتها الخاصة. أقترح أن تركزي جهودك على المناظرات المقبلة والإشكالات الآتية، فلا أكاد أرى أنفع ولا أَسلمَ منك رأيا لمشاركة قناعاتك الخاصة في الصدد المقبل، فضلا لتجاربك الفارطة ولما كنت عليه إلى حد فترة قصيرة مضت، بل والفضل المرغوب أكثر مما سواه في فضول معرفة ما جعلك غير ما كنت عليه...

بَيدَ أن كان تامَّ بيانِه مسترسلا في كلامه، مرَّ بالغرفة اهتزاز طفيف بدا مألوفا. و قبل أن يفطَن أي منهم لما حل بمجلسهم، كان ابن مِسكويه متقعِّدَ عرشِه في نزوهٍ عمن سواه، و كل ما بدا عليه مقعدُه في صميم تكوينه و مظهر إبصاره، أنه استحالَ عن ما كانته أخرَى الكراسي و العروش باختلافٍ تامّ. على تفرد طبعه و اختلافه ظهر على شيء من مظهر المألوف و حِلية الاعتيادية، بل لم

يكن كذلك تماما، كل ما وهبه نعمة أُلفةِ المظهرِ و اعتيادية الحلية، أن صاحبه مسكويه، لم يبدُ متفاجئا بما قد يكفي ليطبع عرشه بما طَبعَ ملامحه... كانَ عرشا متفاوت القحطِ و الإزهار، متوازن الحفظ و الدمار، ممزوجَ خضرةِ النعيم و سوادِ الجحيم.

كوافدٍ جديد، و على قدرِ ما يسعه خلده كإرث فلسفي و كنزٍ بشري إسلامي من العلم و المعرفة، إلا أنه ما كانَ بعالمِ أبعادٍ و لا بعازفِ مقطوعةِ الزمكان، فكان لزاما ـ بعد تقبل هلع و صدمةِ دخوله المفاجئ بدوره ـ أن يحظى بلطفِ إطلاعه بما نقل إليه و ما هو فيه، و في سبيل ذلك تطوع جلاء مساندا...

يستيقظ الجميع بعدها مَهْلوعا مُستغربا على حقيقة كونِه على قدرٍ كافٍ من المعرفة، ليحجب هو نفسُهُ عنهم بضعا مما غاب عن أنظارهم و مسامعهم. فجاز بذلك الترجيح بكونه الأعلمَ بالبُعدِ المُعاشِ آنيا فيهم، ربما باستثناء ضياء طبعا، ذلك لما تلا لحظةَ السكون من قول ابن مسكويه :

ابن مسكويه : ما ظننت لقاءنا مقدورا مجددا، لا سيما و قد مر على ختمي وقت طويل، لا سيما و أنت على هاته الحال، فما عدت

أدري فخرا بغدوك رجلا مُدبرا عن قزمية صِباك، و لا أن أرثي ما يذرفه ثغرك من دماء...

ضياء بابتسامة دافئة سعيدة خالط أغوارها بعض الحزن والرثاء: لعلك تراه مَنظرا مألوفا !

ابن مسكويه: هو كذلك لا شك يا صغيري ! أراك قد بلغَ منك الجهدُ أشُدَّه و كذا السيد بِجانبك يا ضياء. أرى أنكم على أعتاب النهاية، فَلْنَهُمَّ بالباقي من شككم و سؤلكم الآن!

مر حديث عهدِهما الدافئ على المستمعين مِرار الوميض، و ما كان لأي منهم الوقت الكافي لمجاراة سيرِ الأحداث الخارجية، لا سيما و أن وجودهم جميعا ببعدٍ مماثل يضم هذا الشكل من الهيئات التعجيزية قد أعمى أعينهم عن معنى المعجزة في حدِّ ذاته، فما عاد يوقد شعلة عنصر المفاجأة فيهم شيء عدا ما قد تكونُ عليه النهاية، نهاية قناعاتهم، نهاية أفكارهم، و نهايتهم أنفسهم...

جلاء : إذا قد حضينا بنعمة حصر أنفسنا على أعتاب البوابة الدينية، و لم يبق مُحرضا على النقاش إلا مراهنة الأخلاقيات

الاجتماعية بين الخوف و الأنانية، بين صنيعها من الأقوياء أو خلقها من الضعفاء، فما عساك تراه سيدي ابن مسكويه، ما عساكم ترونه بدوركم سيد كونفوشيوس، رغد، حضرتك يا ابن طفيل و حضرتك يا ابن خلدون ؟

ابن طفيل : عني، إني ما أرى في الإنسان أبرقَ من فطرته السليمة و إرادةَ نشأتِه القويمة. كتابُ نشأة الإنسانِ صفحاتٌ خاوية بين دفتي البقاء و الفناء، و لا يملأ تمهيدها إلا فطرة العلم و التطلع و المعرفة، فمن اتبعها قد نجا، و من غض طرفه عنها فقد ضل. و أما الأخلاق فليست بشيء يرثه الإنسان و ما كان له إدراكُه من تلقاء نفسه، و إنما ينشأ بين تخبط عواطفِه، يرجو الخير في ما يبتغيه و يأنسُ له فؤاده، و يتطير الشر في ما ترغب عنه نفسه و أحاسيسه. يظل الإنسان على صراط نموذجه الخاص من الأخلاق، بل على قدره الخاص من الإشباع، من الرد على صوت رغباته و صدى شهواته، إلى أن يبلغ معرفة ما يعلوه قدرا و ما يسمو عنه شأنا، إلى أن يدرك مدى نهائية صغره و ذريته أمام شأن خلق كونه، إلى أن يفهم معنى الرعب و الألم في أن يكون متناهي الضعف في كون متناهي القوة

بما يحتويه من عواصف و زلازل و براكين و نيازك، إلى أن يتوصل أخيرا لكونه بحاجة إلى من يحميه، إلى أن الحلقة اللانهائية في اختلاف القوة و تدرجها، لا بد أن تنتهي إلى خالق قدير يفوق في القوة من سواه، فيكون بذلك الحامي الوحيد و المطلوبَ الأوحد من الكون على لا تناهي ما يحتويه. و بمجرد أن يبلغ الإنسان حقيقة خلقه، حتى يبتغي سبيل رِضى خالقه، ذلك أنه بات يعلم أنه ما عدا بدنه، تمة من يحميه من عاديات كونِه و نكائب زمنه، بأكثر السبل إطلاقا و نجاعة، فيُبدل مسارعةَ دقات فؤاده و مسابقَةَ أيامِ فنائه بعضَها بعضا، طمأنينةً و توكلا و رحابة صدر و اعتمادا مطلقا تحت من كان أمره و أمر ما حوله تحت تصرفه و قطعية أمره في كلمة واحدة، في قوله "كُنْ فيكون" ! لذا أرى الأخلاق من مبصري نعمة منزلة تعرف بالوحي أو البحث الفطري، و ما كنت لأقرنها بخلق قوي و لا بصنع ضعيف !

ابن خلدون : أما عني فليست الأخلاق تحت مقدارٍ موزونٍ و لا مطبوعةً بأختام الخير و الشر في أي مكان، و إنما هي فلسفة العمرانِ و المكان. و تختلف مقاييس الخضوع بين الفرد و الآخر

حسب جغرافيا خلقه وهيئة مجتمعه، فأينما كان المرء كانت طباعُه على ما تكونُ عليه طباع محيطه و أحواله، فيكتسي الهدوء ما دام محيطه هادئا أو يبتغي الفساد ما دام مجتمعه فاسدا، فيتخبط بين هاته الخصلة و ذاك النمط من الخلق، حتى تتدخل الإرادة في تكوين شخصه الطاغي، فإما أن تهذبه ما دامت تقوده إلى خيرٍ بادٍ أو أن تُجنحه ما قادته إلى شرٍّ معلوم. وللدين في أهله ومتبعيه شؤون، فما يلبث المرء أن يبتغي فيه سبيله حتى يهدي أوصافه وطباعه، حركاته وسكناته شيئا فشيئا لطباع الإنسانية. وأضرب لذلك مثل الأمصار العربية بعد أن غدت أسفارا إسلامية، فغدا التكوين الظاهري للمرء العربي غير ما كان عليه، ليتحول من الجنوح ورفض الخضوع وإفراط معاني العزة والأنفة إلى تقدير معاني الألوهية وفهم معطيات الفناء الإنسانية. وأزيد من الشعر بيتا، فإني أرى أحوال المرءِ ونفسَهُ بقدر تأثرها بما تتبعه من الاعتقادات وتبتغيه من السبل، بقدر ما قد تطغى عليها طبائع الترف وسمات البذخ والتبذير ما دام قد نظرَ لنفسه موضعا أعلى من غيره وأسمى ممن عاد يعتبرهم دونه. و هذا مزامن لما قد تحاكيه النفس الإنسانية من الطغيان و التعدي

ما دامت سيدة نفسها أو منسلخة عن حقيقة خالقها و بارئها و سيدها. وإنه لحق معلوم أن للحاكم في شعبه وأهالي أُمَّته شؤون، فيسن فيها ما يشاء ويطبعها بما يريد، فيكون الخير كما يراه ويكون الشر كما يبصره تكييفا لدولته وعمرانها كما شاء، وما يزال الحاكم يبدل أحوال أمته وقناعاتها بين هذا الشأن وذاك، حتى تُطمس هويتها وتذهب عقيدتها، فيسود بعد الاطمئنان الرعب بين الناس، و يغدو الحاكم العادلُ بارحةَ اليوم، ظالما فاسقا يومَ غده. فينسى محكوموه ما كان الحق عليه حتى ينقلب من حقٍّ مُنزَل مكتوبٍ إلى حق مُغتصبٍ مكروه، و تنقلب أخلاق الحق لما ليست عليه، أخلاق ظلم لا حق فيه لشعب بقدر ما هو ذليل حاكِمِه متبع آرائه و سننه باحتكار الإرادة و استعمار نورِ البصرِ و البصيرة. فكان بموجَبِ ذلك أن الأخلاق و لو كانت مثاليثها من مثالية منزلها جل و علا، و لو كانت الأوحد من نوعها لما يسودها من تخصيص طبع السمو و القدسية و الجلالة، إلا أن منها نسخ حقيرة قد يصنعها القوي ليشد لجام الضعيف و يحكم عليه بالأسرِ ما دام تحت إمرته قيدَ أمرِهِ برقبة تحضن جسده، فما أن يخالف أمره حتى يكسَبَ حقه و يفقد رقبته، و

بقدر ما يبدو خلق الضعيف للأخلاقيات منطقيا لتخفيف إحكام سلاسل الأقوياء عليه، إلا أني أنكر أي احتمال قد يبلغ فيه صوته مسامعَ من يرى في نفسه العلو عمن عداه، و بهذا ما تكون الغلبة دوما إلا للأغنياء أو الأقوياء ما غلبت عليهم سمة الفسوق، و ما دام الله لا يشاء هدايتهم لطريق قويم !

رغد: فأما من وجهتي، فقد عشت دهرا كافيا لأبلغ الحد الذي أتخذ به الخاصَّ من قراراتي، و في كل قرار ارتأيته أو اتخذته لحد الساعة، ما كانت مراعاتي فيه كملحدة لأمرٍ عدا مشيئة نفسي و ما تشتهيه، و بقدرِ ما تحاشيت إقراري بذلك، إلا أن في منظومة مجتمعنا منظومة متهالكةً مهدومةً بين تقاطع الحرية و الأخلاق، فلا فينا من هو بالغُ إطلاق حريته، و لا منا من هو تحت كاملِ تقييده و أسرِهِ إلا لو شاء وَهْبَ أمره و ابتغى هِبةَ مآله. و على كلٍّ، بغض الطرف عما قد تكونه الصبغة أو الرؤية العامة لمنظور الأخلاق، فما هي في سائر أحوالها إلا التجسيد الكامل لرغبةِ الغير في تحاشي إكراهات الأنا، و بالتالي إضفاء الأنا الأعلى للمعادلة، مما قد يضمن له كذات أخرى الحِماية من ممارسات ذاتي الخاصة و نزواتي

الشخصية، و نجاح مفهوم "الأخلاقية الاجتماعية" في محله كآليةٍ و جزء من نظام و دستور العقد الاجتماعي بما يحتويه من قوانين و سنن، ليس عائدا إلا للرغبة المتبادلة بين سائر أفراد المجتمع في الاحتماء من ردود الفعل الإنسِية و إنزال شهواتها حتى تكون مَحطَّ مراقبةٍ و إحباط ما إن بلغت حدود النمط المكون لحريات الآخر. وما يسلم من هذا التكوين القانوني العام؛ أو الأخلاقي لو شئنا دمج القوانين ضمن المعنى الأخلاقي؛ إلا من كان حرفيا فوق السلطة، إما لو كان واضعَ السلطةِ نفسه أو المتحكم بها ذاته، حيث لا يكون الأسافل من العناصر المكونة لبناء المجتمع إلا مجرد بيادق، لا يتعدى أحدهم مجال الآخر في حفظ غير مقصود لملكية الحاكم لكلي عقولهم وأجسادهم في تجاهل تام لمواطئهم، والتي هي بدورها استعمارٌ تام لمعنوياتهم الشخصية...

جلاء : أيبقى لنا رأي حتى بعد أن اختلفت أحكامكم لتشمل كل الرؤى !!!

ابن مسكويه: أخشى أن في جعبتي ما يقال، وبداخلي فُضولٌ لا يُزال، فضولٌ لإبصار ما قد تبدو عليه آراؤكم وردود أفعالكم بعد

ما أنا قائله، إلا أن بمحلنا هذا ما يعود بي للوراء. ما عدت أدري ما أنا فاعلُهُ يا ضياء !

ضياء ـ و ما بقي بينه و بين فراق الحياة إلا حياة اللسان و حضور الجسد ـ : أبي، لستُ بمحدثِك لأمنعك عما تنويه، إلا أن بيننا عهدا أرجو أن تقضيه و لو كنتُ مؤدي ثمنه كرَّتَين. لي في ذلك منك كل الرجاء، حدثهم بوقائع الحياة و لو كان على لساني. علَّ غرفة الأحلام تَنسُبُ تحت اسمي كل ما يقال، فلست حديثَ عهدٍ بها بآخر المآل...

ابن مسكويه : أواثق من رغبتك يا ضياء ؟ ما جمَعنا اللقاء أخيرا يا بني لتفصل بيننا أحكام الزمن و مواقيت الفراق !

جلاء : أبي ؟ بني ؟ بم عساكما تثرثران بوقت كهذا ؟

ضياء : هو لي بمنزلة الأب الروحي، هو لي مَكسب يُستحالُ أن يُكتسب، و عله يكون لك من باب شجرة الصِّلات أبا لو شئت على حدٍّ سواء !

نيتشه : مشاعر البشر وضيعةٌ كعادتها، ضعيفةٌ كمألوفِها ! إني

بكامل السعادة لأن تكون آخرُ لحظاتي إقرارا بما يمليه رأيي و تصبو إليه وجهتي، أن تكون مشهدا كاملا من الضعف الإنساني و لغز القلب العاطفي المصاحبِ له...

أدرك كل من ابن خلدون و ابن طفيل و كونفوشيوس كونَ الأمر يتعدى تدخلهم إلى جدالٍ ذا طابعٍ شخصي و ارتباط فردي، و على خُطاهم، تنبه جلاء لإسهاب ضياءً بالحديث كونُه على مقربةٍ من فقدان وعيه بشكل كامل، فقد نزف بالفعل ما يسع حوتا عظيما من الدماء، و لا يسعه أن يجازف باطلاع رغد على أمره و أمر أخيه، فلم يكن يوما محبا للمشاركة بآخرِ المطاف. ما استدعاه لتغيير منحى الحديث و العودة إلى المسار المرغوب...

جلاء : للغرفة نظامان أساسيان ثابتان، أولها يقضي بمجازاة المخطئ من جنس خطئه و ذاك من جنس ما أصاب السيد نيتشه، و ثانيها يحكم بعقاب من توغل في إسهاب منحة العلم و عطاء المعرفة بما قد تكفي قدرته تأثير الماضي على الحاضر و بالتالي المستقبل كما هو معلوم، و يخبرني عقلي بما يطلعني عليه أن فيها سُنَّة ثالثةً تحتوي ضياء بحيث أجهلها إلى الآن ! فأي تلك السنن عساك تخشاها يا

ابن مسكويه، أفي أنظمتها ما يضرك، أو علك على قدر كافٍ من الخيبة لتتحاشى إطلاعنا على رأيك المظنون به سدادا و صحة، أم أنك قد بلغت كمال الوثوق لحدٍّ يمنَعُكَ التحديث بما يجول في عقلك و يصول بخاطرك !

ابن مسكويه : لا هذا و لا ذاك، و إن بني مجلسنا ممن يعدونَني قد أنعش مجيئي ذاكرتهم و علمهم بما أنساهم ختم الكتاب العليم، وإنهم لعلى إدراك تام أن ترددي ما كان إلا لسبب صريح، عل تراجعي قد يقيني مآلا أخشى من عاقبته ما أخشى من أثرها على ضياء...

ضياء : رجاء، لم يتبق لي من الوقت الكثير، قد أوفينا بفضل الله و فضلك مما أتى بنا لمحلنا هذا ثلثيه مسبقا، فأعني على إيفاء الثلث الأخير، فما عهدتك يوما مخلف وعدك ! حدث باسمي و خلِّ بينك و بينَ اسمك...

كان ابن مسكويه أكثر ترددا مما بدا على حلته في أي وقت مضى، و البادي أن في ثنيات مراعاته حفظا و حرصا، يتعديان حفظ نفسه لمراعاة ضياء وحده بما حدثت به عيناه و اتجهت له نظراته و تجهمت

له قسمات محياه و ملامحه، إلا أنه أخيرا و بعد طول تفكير و تدبير أساد الصمت بما حوله، تقدم أخيرا ليهم بالحديث آذنا بانقشاع سديم الصمت و إراعة السكوت...

ابن مسكويه: ما كنت لأفعل ذلك يوما بابن كان لي من الدنيويات كلها كل الملجأ و المبتغى و المآل، ما كنت بناطق اسمك إلا باعتراف حب أو بإضمار امتنان، فهبني مسامعك نستمع جميعا لصيت ما شاركته أعيننا آنذاك و إلى حد الساعة .

و ما هم ضياء بالاعتراض متجاهلا ضعف حيلته حتى تجاهله مسكويه في نظرة متبرمة قائلا : إنما الأخلاق حالٌ للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية، و ليس الإنسان أوان خَلقه على شيء من الخُلق، و إنما يكون صفحة بيضاء يسطرها محيطه التعليمي و أساسه التربوي بما شاء و كيف شاء، حتى يبدي ما هو عليه من الخلق بعد طول الملاحظة، فإما أن يحفظ له ما نظر منه، و يستحبَّ أن يبقى عليه، و إما أن يكره ما نظر منه و ما سمع عنه فيُردع عما يخوض فيه، فيعود الطفل المتخلق بما رأى و شاء و المتصرف بما تمليه نفسه في حينها، إنسانا راشدا يُحكِّم عقله ليسبق يده، و يهب

الولاية لعقله على لسانه حتى يسبق فكره تصرفه، و ليس هذا شيئا من الخلق و إنما هو أقرب لممارسة الفكر و ضبط التصرف و إحسانه بما يمليه المجتمع المحيط. فأما الخلق في حقيقة إيهابه فما هو إلا النموذج البدئي الراسخ في طفولة الإنسان عينه، و ما كان كل ما يكتسبه ممن عداه، إلا مجموع الرغبات الإنسانية بعد تحديدها و تحقيقها لتعود ثوبَ حرير على مقاس المجتمعات الإنسانية بما تحتويه من رغبات، فما يكون النموذج الأخلاقي بذلك إلا وصفا للرغبة الجماعية، أو كذا تحديدا لمطامع النفس الإنسانية. و بين هذا و ذاك، لا يسع القول إلا أن للإنسان في طفولته القحة ما يلاقي بينه و بين مرآة طابعه الخاص، و بينما يكبر و يرشد و يسمو، تتحول طباعه لتؤول إلى غير ما كانت عليه، فيتخذ المرء من نفسه نموذج تجربة يثبت وصال ذاته على ذوات مجتمعه بطابع التجربة و الملاحظة، فيحمل على قسمات وجهه ما رآه مرغوبا من مجتمعه، و يأخذ منه ما رآها مكروها منبوذا من أهله. ذلك أن الإنسان مدني بطبعه، و أن حاجته لمجتمعه أعلى من حاجته لحفظه لذاته و أخلاقياته على أصلها و إبقائها على نموذج فصلها. و بذلك يتحقق له كمال الحب

و القبول في المنظومة المدنية المنتمي لها. هذا كحديث عام، و أما في ما خص الفصل في النفس بين الدين و الرغبة و المجتمع، فالله خالق الدين نفسه أعلى و أعلم و أقدر على تبين مكامن الخلل فينا، و ما كان ما شمله قوله الحكيم من ترغيب و ترهيب لخلقه إلا أنَّه علم أن فينا طينة الخطيئة الأولى، و أننا لا زلنا ذات النفس الأولى التي طمعت في شجرة الخلود و الملك الذي لا يفنى، و بحكمته المطلقة الواسعة لصفحات الزمان و شهادة المكان، كان معلوما أن تشذيب طباع الإنسان و تهذيب أخلاقه، ركنان أساسيان خاضعان لسلطة علية وحدها تعلم الأصح و الأقوم، و بالتالي كان رأي الدين أن الإنسان ما يبتغي الخلق وحده و ما كان ليبلغ هيئته الحقة و شكله، إلا أن الدين في تمامه المطلق كإسلام قد هم بذلك عن كل آدمي و أبدى الخلق على ما ينبغي عليه أن يكون. وأما بلفظ الرغبة و مصطلح المجتمع، فكل ما فيهما جائز، هي عوالم محضة للإرادة الملتوية و رغبات تجسيد الشهوة، فيها قد يأسر القوي الضعيف بأخلاق مصنوعة حتى يظل الضعيف دائم البؤسِ خالد فنائه على ضعفه، و يظل القوي قويا لا تهديد يطاله و لا منافس

ينالُه. و فيها قد يحتمي الضعيف بالمختلَق مما يدعونه بالأخلاق، فتكون حجابا بينهم و بين من ابتغوا التسلط عليهم أو ظلمهم، فيكون القوي تحت وطأة تنكيل و موقف ضعف أمام سلطة علية قوية، تبديه قويا على قمة ضعفه، معضلا نحيلا، متعجرفا خاسئا، مبتسما بكاءً، و ما يزال القوي ينظر نفسه على هاته الحال أمام ضعفه مقابل السلطة التي يستنجد منه بها الضعيف، حتى يتقيه و يخلي سبيله، فيأمن الضعيف من شر القوي و يأمن القوي من بأسِ الأقوى منه .و اللازم البادي في نهاية الأمر، أنه وجب الفصلُ بين النفس و الجسد، فما دام المرء يضعهما في حاوية واحدة و يختزلهما في وعاءٍ واحد، حتى لا يجد من الحياة إلا ريح الفناء، فما يكون منه داعٍ يقود لحسن المعاملة و تهذيب الأخلاق، و ما فصل المرء نفسه عن بدنه، إلا و اهتدى للحقيقة الكونية، و علم أن قيمة الخلق في الخلود، و أن ما صاحب النفس من الأبدية، إما مُصيبها برحمة دائمة لما عاشرته النفس من إحسان البدن، و إما ملازمها بلعنة أبدية ما دامت قد ابتغت في مبلغ حياتها و أواخر أنفاسِها شهواتَها وحدها دون غيرها، لا تفصل بين حق الحرية و الإرادة في ما تملك،

و ضرورة الطاعة و الخضوع في ما لا تملك. لذا كان إيجازا لكل ما سبق، أن الخلق على جبل الرؤى منظورٌ من زوايا عدة، والثبات على قول واحد فيه أمر محال، وكذا الفصل في طبيعة النفس بعد أن القرآن ذاته لم يفصل فيها أمر مستحيل، بهذا كان القرار الأسلم اتباع آيات الكون المنظور والبحث في طيات رضى البارئ و توجيه المُصور، و أما ما بقي، فما هو إلا صنيعٌ إنساني، و كل ما هو إنساني، آهِلٌ للسقوط مُحالٌ للفناء...

وما أن تناعت حروف الفناء من بين شفتيه، إلا وكأن الغرفة طوعَ أمره مدينَةُ خدمةٍ له، فكانت بمثابة الكلمة السحرية، ما إن تلفظ بها إلا وسار البعدُ يهوي شيئا فشيئا، ليعود كلٌّ لِنصاب أمرِه... بعدها غدت غرفة الخِتام بُعدا آخَر، بُعدًا أكثر تماسُكا وأشدَّ جدية، فيه عاد كل طريحٍ من المناظِرينَ إلى ما كانَ عليه، آدميا كاملا لا تشوبه شائبة، فانقشعت الدماء عن أبدان المعنيين بِنَهم مفتاحها. ما عاد يحيط بالمُناظرين ولا يتحمل مواطئهم إلا نورٌ يسبقُ صبيبَه بين الثانية واللحظة صبيب نور آخر. ما عاد أحدهم يدري عن الآخرِ أينَ استحالوا و لا أين اختلفوا، و كل ما يسع علمهم أنهم

قد فقدوا واحدا من أهلهم، فردا من عائلة العلم و أسرة المعرفة، بل و ربما الأعلم على رأسِ الأسرة و صدرها!

قد كان ابن مسكويه مفقودا، و أينما ابتغوا سَبيله كان ذاك بمثابة السباحة في فضاء معتم، لا يسوق الواحد منهم إلا في متاهةٍ لا نهائية ترسمُها رمزية البُعدِ الجديد و رغبة الإبقاء على مجمَع الباقين. بينما آلت أنظار الجميع للفناء لشدة ما صاحبته من البحث و التنقيب، أيقظت رغد مسامِعَهم على قولها:

رغد : كفى رجاء، قد بلغ القدر مبلغه منا أساسا، فما أنتُم مبتغونه ؟ أيبلغ علمكم حقائق الأكوان و لا يَسَع معرفةً بقدر حبَّةِ خردلٍ من البساطة، أما كان لكم أن تُراعوا خطبة وداعِ السيد ابن مسكويه بما لوَّحت لنا به عيناه؟ أكان بهذا القدر من الصعوبة لكم جميعا أن تدركوا ما واجهه من ضيق صدرٍ و موتِ خاطِرٍ و مراعاة خاتِمته بأُكُفٍّ مفتاحِ الدماء! أما كان باديا حتى ما أضمره من عواطف جياشة لضياء، مهما كانت الأعين التي ترون بها والأفئدة التي تبصرون بها، فلن يبصر الإنسانُ ما دامَ إنسانا إلا كونها لحظَةَ وداع...

أفرجت رغد عن كلماتها تلك بينما طفت مقلتا عينيها على سيلٍ غامرٍ من الدموع، بينما زادَ حُمرةَ وجنتيها حسنا فيضٌ غامِرٌ من العبرات. ربما لم تكن فترة طويلة تجمعهم، إلا أنه كان سيدَ كونِهِ مؤثرا بمحيطه، هالة الحب المصاحبة له قد كانت كالعبيرِ يستنشق أريجَها كل مار، كل من مر بدرب علمه ولطف معرفته وسكينته. أن كون التهديدَ الذي طاله في ذات الوقت قد كان من جنس ما قد يصيب جلاء، قد زادها هلعا على حياةِ محبوبها وطلبا لبقائه، إلى أن تُفرج عن مكنون مشاعرها وجوهرِ عاطفتها على الأقل، إلى أن ترى ما قد يؤولان إليه معا، أإلى طائرين مُنمقين مصطنعين يخلق بعضهما بعضا، يُحلقان طيران النصر والابتهاج في ضياءِ الفضاء، أم إلى باخرة متهالكة تمخرُ عباب الشقاء!

خلود مرغوبٌ في سائر الأحوال، إسما في جحيم أو روحا في نعيم.

ما كادت عبرات رغد تعبر محياها لمصافحة الهواء، حتى كانت على أعلى نسمات عالمها، متربعةً عرشَ الكونِ المنظور، حاكمةَ الواقع الآني المُعاش. قد تقعدت عرشا من رياح، تتضارب فيه اتجاهات تكتلات ما أُمرَ بالهيجان من هواء.

بقدر ما بدا عرشا سحريا، قد كان مقعدا سماويا بكل ما تحمله الكلمة من تفاصيل الإمكانية واحتمالات المعنى ما دامت لا تعدو بُعدَ الكتاب. قد كان لا شك شعورا حديث العهد بها، لا هو آنس لها من قبل ولا هي بآنسة له، وبقدر ما استغرَبَتْه بقدر ما كان لها أكمل شعورٍ بالإنسانية، لسبب ما كان لها عبيرا من بُعدِ الواقعِ والصبيب المستمر من الزمن المفقود.

بينما هي تجاهد نفسها لفهم ما غدت على إيهابه و شكله، تدخل ابن خلدون مشيرا إلى ما تقعدته :

لمئات من السنين الماضية، كان ختم بعضنا داخل الكتاب اختيارا غدا لعنةً أبدية. ذاك أننا بقينا على ما كلفنا به من مهام وجودية، عاجزين عن قذف الروح الأكمل للإنسانية في زائري ضريح المعرفة. قد كنتم منذ بداياتكم تحت حرصنا جميعا في هذا الكون المَصنوع، عله لا يبلغ الخلق القدسي الأعلى في شيء، إلا أنه صنع خصيصا لاحتواء أرواح الفلاسفة طورَ أوجهم، و هذا ما حدده سقراط أب الفلاسفة منذ أمدٍ بعيد. قد صمم الكتاب الكوني بما يدفع قدرته لتسع استيعاب الأرواح السابقَةِ لسقراطَ والتي بعده، ذاك ما بإمكانكم أن تدعوه برغبة الأَرواح. اجتماعنا لحد الساعة قد كان بمثابة فاصل زمني أحدث ثغرة بجريان وقت الواقع الفعلي، لذا يفترضُ بجميعنا ـ عدا حضرة كونفوشيوس بكل تأكيد ـ أن نعود لواقعنا كلٌّ لزمنه و موقعه، بما أننا حيينا جميعا بعد سيادة الفيلسوف الأكبر سقراط .

قاطعه كونفوشيوس بينما هو في أوج حديثه قائلا:

كونفوشيوس : و لكوننا هذا ثلاثة أبعاد، بُعد الأرض و بعد الغرفة و بعد السماء. فأما بعد الأرض ففيه التقت سُبلنا و فيه كنتم

جميعا الأقرب لصيت الواقع و منزلته، و به كُلّفت بمصاحبتكم إلى أن تهتدي سبلكم لحقيقة الإرادة الحرة، و لولا استمراركم و إصراركم و نجاعة رأيكم في ابتغاء حقيقة الكون و المعرفة بسننه، لكُنتُ و إياكم عالقين ببعدِ الأرض و أسوارِه و حدوده. ذاك أني أكون بذلك قد فشلت في إشعال عنصر الإرادة و رغبة الحرية، فنفشل جميعا في بلوغ المبتغى المطلوب، ولوجُ بعدِ الغرفة .

نيتشه : بمجرد ولوج بعد الغرفة، قد أضحى معلوما أن في حوزةِ جميعكم ما يثير فيكم رغبة التطلع إلى نافذة الإرادة و باب الحرية، و حري بي كأحد ركائز بُعدنا الخاص، أن أستنبط من جميعكم ما يُقوِّم الإرادَةَ الحُرَّة القابِعَةَ فيكم، بما يحتويه ذلك من مفاهيم الوجودية و معاني العبثية. لا تقتصر الغرفة على إغناء كفة الحرية الفكرية وجانب الإرادة، وإنما تتعدى أدوارُها حواجز التعليم لترجيح المُضافِين من الزائرين بين جناحي الترغيب و الترهيب، فكان من صور الترغيب ما تقعده بعضنا من عروش و كان مِن الترهيب ما لاقاه بعضنا الآخر من مصيرٍ أحمر نهايةَ كلِّ مناظرةٍ أو حوار. وفي النهاية لَيسَ ما تُمليه الغرفةُ كردود فعلٍ صحيحٌ قطعا، وإنما هي بما

هو معلوم مسبقا، "نموذج مطلق للإرادة الحرة"، فكل ما واجهتموه جميعا من انقلاب، ما كان إلا مثالا كاملا واصفا لإراداتكم الخاصة، وزادَها تعزيزا ما استبطنته مناظراتنا من تلميحات لقسمات الحق وفصله عن الباطل من منظورنا الخاص، والذي صادفَ أن مجراهُ و مآله قد طابق رؤاكم كأنما خيط لها عن غيرها بشكل خاص. والحق أقول، مهما رأيت ومهما اختلفت قناعاتي، فما خضناه معا و عشناه جميعا، جعلني أؤمن لسبب ما أن تجسيد إرادتكم قد كان بشكل ما الأقرَبَ للواقع، فما كنت سابق العهد برؤية الغرفة على هذا القدر من الجدية في إنتاج ردود الفعل و تجسيدها من قبل. فإن كان على تأويل ذلك، فما أقول إلا أن ما وسع حديثنا من الإلهيات قد راقها، أو راق الواقع المطابق لها بشكل خاص. عل ذلك صحيح من منظوري، أو عل ما جعلها على هذا القدر من الثبات في التصرف والاستقرار، أن إراداتكم جميعا قد اختُزلت في إرادة واحدة، وأنكم بالفعل قد كنتم ثابتين جميعا على رأي واحد، فما كان فيكم ولا منكم، ما ولا من قد يؤرق انفعال الغرفة أو يعكر صَفوها...

وما أن عزم نيتشه على اختتام شرحه، حتى ظهَر ابن مسكويه

من بين ثنيات الأنوار المحيطة سابحا بين نجومها وسطوع بياضها، مبتسما يملأ وجهه الفخر ويحدث محياه بالاعتزاز:

ابن مسكويه: الآن و قد اكتملت فصول الكتاب في أبعاده الثلاث، كان لجلاء الفضل الأكمل في بلوغنا قدرنا هذا إذ ما بلغناه يوما من قبل. فضله ما كان في قول له و لا في ما عداه من تصرف هو فاعله، و لست أنفي قدرته و تمكنه، فقد جالسَ التاريخ نفسه و حدثه بلسان الماضي و المستقبل حتى أفحمه، إلا أن وجودنا هنا ما كان فضله فيه إلا وجوده في حد ذاته، و المرجع الأكبر للامتنان رغد. طوبى لجميعنا بها، فاليوم قد حلت على الكتاب صفحات جديدة، صفحة عجز عن تحقيق معنى مدادها كل زائرٍ لمئات خلت من السنين. فالشكر لها أن على ختم شقائنا الآن قد حلت ترنيمة حظ سعيد، هي تعويذة خلق العهد الجديد ! هذا بُعدُ السماء، بعدٌ أنتم أول واطئيه بعدَ المؤسس الأول سقراط. قد كان بعدُ الأرض نسمة من ريح الواقع وعبقه بما احتواه من الكراهة، وكان بعدُ الغرفة مرآة لأغواركم جميعا، مياهً زرقاء صافية تعكس قرارة إرادتكم الحرة وتَهيُّج تقلباتها على ما تضمنته من التوجيه. وها نحن

أبناء وسط مستحدث وفضلٍ مديد، أهالي حظ عظيمٍ نالوا شرَفَ موطنٍ بعد السماء بما يحتويه.

قد طغت لكنة السكون على أفواه الحاضرين، فانطبقت شفاهم لما وسِع زمنُه السناحَ له بما أسلفَ به من حديث. ذاك أن مسكويه المظنون به ضحية تقلبٍ من تقلبات غرفة الزمن أو أسير تذمر آلام انعكاساتها و صرخاتٍ مخاضها، ما منعه و حال بينه و بين بعد السماء، قد بدا مهاجرا حيا يرزق من العدَم... و بينما هم في حيرتهم، قاطع ابن مسكويه صمتهم بينما سبقت ابتساماتهم جميعا تموج ألسنتهم بترحيب طلوع أحد أهلهم من جديد:

ابن مسكويه : أراكِ يا رغد على عرشِ السماء، و إني لك بذلك لمدين، لمدينٌ دَينَ البقاءِ دهرَ الخلود. قد صادف أن لِغرفة الأحلام لوعةَ عشقٍ ورغبة حضنٍ اختصتني به عن غيري، و المرجح أن بقولي ما راقها لحد منعي عن قبلةِ نسمات السماء و عليل غدوها و رواحِها.

وعلى كل، يسعدني أن في إحالة وجودنا حاكم جديد. بعد السماء يا أهالي التطلع وبنيه، ليس بعدا يؤتى بعقلٍ ولا محلا يوهب

بمعرفة، هو في ذاته تجسيدٌ لجوهر الإنسانية، بل لعواطفها، و على وجه الخصوص، ما يحددها من الطبيعة البشرية. و ما أصاب رغدا من الحَزن و شقاء الاشتياق و رغبة البقاء و الإبقاء، قد كان المثال المطلق لما قد تكون عليه العاطفة الإنسانية. ذاك ما قد أوضح ربما أن لِأنوثة الطباع ما قد يُميل كفتها للإنسانية أكثر مما عداها، و تاريخ الكتاب الحافل بما احتواه و من احتواهم من الزائرين، ما كانت برهنتُهُ على شيء أكمل من برهنته على تغلب العاطفة الأنثوية في كل مرة، إلى أن غدا بُعدُ السماء بعدا مخصصا محفوظا للمرأة وحدها عمن عداها بامتياز .

قبل أن يستوعب أي الحاضرين كلمات ابن مسكويه، سارع ضياء خطواته صوبه بعينين خصبتين غزاهما سيل غامر من دموع حرقة ولوعة أسى احمر لها جفناه. وبين إرادة التوبيخ ورغبة العتاب، ما جمعه به إلا حُضنٌ بدا متحرقا للقياه منذ أمدٍ بعيد، حضنٌ دام لدقائق تشوه لها رشد جلاء ليبدو على أكثر هيئاته الطفولية وصفاته الصبيانية، كل ما ظهر عليه كان مظهر فتى خسر لتوه لعبته المفضلة، ما كان ذلك مظهرا قد يتوقع جلاء رؤيته أبدا، ليسَ من قاتل والديه

اللارحيم على وجه التفريد و الاستثناء و الخصوص...

جلاء : حتما أنه كان لقاء حارا، لكن ألا يرى أي منكم و لو على وجه اللطف و المراعاة كونكم مدينين لنا بتفسير، بل أنت خصوصا يا ضياء، ما عساه هراؤك هذا يكون، أبي ؟؟ أتبنّاك فيلسوف من القرن العاشر أم ما عسى الأمر يكون! فما عاد بعد الغرفة وعرش السماء ما قد يتجاوز رؤيا الاستحالة...

ضياء : إني لمدين لك باعتذار، علِّيَ مدينٌ بكل نَفَسٍ استنشقته بما سلف من عمري و بما أنعم به الآن. إلا أن كل حبي لك، كل كراهيتك تجاهي، كل ما عشناه يتيمين مبتوري الأبوين، ما كان إلا قربانا عظيما نُحِر في سبيلك، ذاكَ ابتغاء كوثرٍ كنتَ الأنسب له و الأخيطَ على مقاسه مطابقا لكيانه، "قربانَ هدية أهلِية الكتاب". قد مر على مجرى زمننا وقتٌ وفيرٌ و قد حان وقت الرقود. جميع المناظرين قد كانوا نِعمةً من النعم المكتوبة في صحيفة قدرك من السعادة، فأحسن لما علّموك ولقنوك إياه بحسن التصرف فيه كما أحسنوا إليك. قد غدوت رجلا قادرا كل القدرة على اكتساب المعرفة بما تقتضيه من أركان الفهم و أصول الاستيعاب. و اعلم

أن التضحية الكبرى لرحلة الكتاب قد كان فضلها من نسيج صنع مفتاح الدماء، كونه المفتاح الجامع لدمائي و دماء باقي المناظرين الأعزاء، و الأهم، القدْرُ الجامع له من دماء والدينا يا جلاء. احتواء المفتاح للقدْرِ الوفير الذي ضحيا به من الدماء، كان مقايضة صريحة للزمن تحت قوانين ما استُضفنا به من أبعاد، فأبقانا لما وسِع كل ما خضنا بغماره من طول أحاديث و حماس مناظرات. آن لك أخيرا أن تنال نعمة الاختيار، أأن تنال اسمك خالدا في جحيم، أم روحا باقيةَ الأبدية فردا سماويا من أهالي النعيم ! أعهد لك بالباقي يا أخي، حان لك أن تتخذ قرارك في معاملة الكتاب، أما عنا فلم يعد مفتاح الدماء يحتمل نقل ما يعدو سعة استيعاب شخصين بما يحملانه من جسدٍ و روح و فكر، و لو أنه لم يضلَّ من عمركما إلا نصفُ المقدورِ منه . و لا أحد منا يطمع لمصافحة نسمات الدنيا من جديد، فلتنعم فيها و لتكن منا للعالم و بنيه خير رسول. خذ رغدا وامض في سبيلك يا جلاء. كل الحظ لك به أدعو، فلا تنس أخاك أَرَمقتهُ مجرما أم نظرت إليه بعين الرحمة و الاستثناء، لا تنس أخا رعتك يداه و رعته يداك! لا أنال من شوق الحديث حصة رغبتي

لكن مفتاح الدماء عاشق للتخريب محِبٌّ لإفساد لحظات الوداع و فصل الأحباء، لنا من الحديث بقية بخاتمة الكتاب، فأبلغ سلامي للصغيرة رانيا، إلى لقاء مقدور إن شاء الله !

صُوِّرَ قوله أطول مما قد تبدو عليه كلماتُ فراقٍ أخيرة، ولو أنها بلغة الزمن ولسان عقاربه قد مرت بلحظةٍ منعدمة، لحظة حزن و تبرم و أسى و ندم، ندمٌ لما أغفله جلاء من حب أخيه و صبابته، ندمٌ لإدراكه لما أودى بأبويه في سبيل إحداث رحلته، في سبيل إحداث أعظم كربٍ و أفحمِ لعنةٍ تراقصت عليها خيوط السخط و ضحكات الأباليس على حياته هو ذاته عمن سواه. لعنةً أخذت منه صبيا تعيسا أباهُ وأمهُ ولا زالت تفجعه في سلب عطاياه، لتأخذ منه شابا أخاهُ ضياء. لعنة قايضته عشقا وسعادة وحبا و منتصفَ عمرٍ بعِلم. ذاك سحرُ الكتاب في إرادة مقايضة ختم الخلود مقابلَ معرفة الفناء، ما كان يوما سحر جمالٍ ونظارة كما يرى، أو لا يراه جلاه كذلك على أي تقدير، كتابٌ سلبه كل شيء خارجا وداخلا، كتابٌ سلَبَهُ حرية الإرادةِ و التعبير، ما كان ليراه إلا محضَ سحرٍ أسود، سحرًا ملعونا لا تقعيد لإقدامه و لا تقييدَ لأحواله...

الفصل الأخير :

ترنيمة الإيمان، بين تقوى الأرواح و ضلال الأنام

ختام : نهاية بداية

ما هي إلا ثوانٍ معدودات، حتى كانَ جلاء و رغد على برج الأحلام بمدينةِ القمر. مدينةُ القمرِ على جمالها أميل للمواساةِ عن التهنئة وأقرب للتعزية عن التيمن والاستبشار. على علو البرج بدا ما قد يكون عليه صغرُ البشر وتجسيد ضعف الأنام، حيث كان صعود بضعة أدراج كفيلا أن يُظهر الحشودَ الغامرة على مرأى النمل من الإنسان، وكل ما تبادر لذهن جلاء آنذاك، رغبة جامحة في قوله بأفصح قولٍ مأخوذ متناصٍّ وأبلغ لِسان، أن يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم بُغضُ الإنسية أو يغركم بالله الغرور، أنكم أسمى أن تضيعوا هباءً كنسمةِ رياحٍ فتكونوا نسيا منسيا...

عله كان على حيرةٍ من أمره، إلا أنه بات يعلم الآن، أن المعرفة بقدر ما هي رحمة بقدرِ ما قد تكون بمحل اللعنة، وإن الله لرحيم بالعباد.

إدراكُهُ أنَّا ما أوتينا من العلم إلا قليلا، ثبت فيه آصرة الإيمان،

وعلم أن الخوض في متاهةِ النفسِ وإعصارِها، طريق مظلم حالك طويل لا نهاية له ولا مخرج منه. ذاك نفسه ما وضع نيتشه على ذلك الشكل من موضعه و ذاك ما اعتصر منه دماءَه و لو كانَ للحظات ببُعدٍ محدود. وعلى رغم ما أصابه من فاجعة الأمرِ وسوء المآل مما لحقه من تدبير الكتاب، إلا أن له عليه دَيْنَ النهضَةِ والإنقاذِ من الضلال. وعلى ما طاله من سوادِ الختامِ وألمِ الفقدان، كانَ أعلَمَ بفضلِ الكتاب فيما أصبحت عليه عيناه من قدرة الإدراك قبل الرؤية والتبصر قبل الإبصار، أنه عاد يراعي أن للقلب محلا من المعرفة، وأن العقل ناهبُ العاطفة، ولا يحلق المرء إلا بجناحي الفكر والشعور، فما يفتقد أحدهما أو كليهما إلا وظل صاحبُهما أبد الدهر في الحضيض...

وإيمانا بمشروعِ خلقِ جلاء الجديد، كان لرغد الفضلُ الأكبرُ في إيقاظه على حقيقةِ الإنسانية كونُها متقعّدةَ عرشِ السماء، فما كان له بدّ إلا أن يطلق العنان لفؤاده من جديد، ويعترف بمبادلته الحبَّ رغدا وضياء. وبينما هو تائه بين هذا السبيل من المساءلة الفكرية وذاك، أعادته رغد لموطئه ووعيه تنسيه تذمُّرَ الكراهيةِ والشقاء، و

تذكره بآخِرِ وصايا ضياء، بقراءةِ خاتمةِ الكتاب...

بينما هم بتصفح الكتاب، يجد جلاء بيده مفتاح الدماء والذي بدا أنه كان رفيق لرحلته في مغادرة العوالم لا الأبعاد. والأغربُ في ملمسِه ما احتواه من دماء، دماءٌ يفترض أن المطافَ قد انتهى بها للفناء حينَ نقلِ رغد و ضياء. لم يعبئ جلاء لما استغربه من المفتاح و استمر في مداعبة صفحات الكتاب، و ما هي إلا هنيهات بحث و لحظات تنقيب، إلا و قد وقع على ختام الكتاب واقعا محلَّ الإهداء، فكان من القول المأثور فيه: إلى أخي جلاء، إلى من أذعنت له إرادة الكتاب، لِيَ يقين أنك تفهم الآن مغزى المواقع الضالة في الكتاب. تأخير الإهداء لموقع الوداع ما كان إلا تلميحا لمجازفة الضياع والفناء بالاستجابة لنداء الكتاب، ومواقعة الختام لموقع الإهداء ما يعني إلا أنك بإحكام تصرف الكتاب، قد أهديت دهرا آخرَ من الزمن، دهرا أنصف عمرا وأكمل فكرا، دهرا أسعد يمنا وأبخس شقاء، أنك قد حللت ورغدا على عهدٍ جديد. لا يخفى عني ولا تتوارى عن فؤادي نظرات اليومِ الأحمر، يومَ جثوت على جثتي والدينا في انعدام حيلةٍ وضلال سبيل، يوم زملني والدانا بما

اختَصُّونا به من دماء. لا يخفى عني ما أضمرته من حقدٍ و كراهية ورغبة انتقام، وذاك مآل معلوم و سبيل متفرد بقدَرِهِ لا يزاحم طريقتَهُ سِواه!

تتعدد المشيئات وقد كان لوالدينا مشيئةٌ رُجِّحَت عما سواها، أن نبلُغَ حقيقة الفناء لمصالحةِ واقعِ الخلود و البقاء. طمعا في سبيل إقرارها وفداه، قد وهبا حياتهما قربانا لمفتاح الدماء بعدما أطبقَ عليهما سوايَ ختمُ الكتاب. أوقِنُ أن ما أبصرتهُ باليوم الأحمر، قد كان موضوعا لكوابيسك موقع ريعانٍ من أحلامك. لا بد أن مُواقعتك لمصيبة الدهرِ في فقدانِ السندينِ العلِييْن، أن يكون فقدانك إياهما تصرف لعنةٍ لا مظنونة ولا منظورة من سند آخر، قد كانت موضع شقاء كسر ظهرك فلا تستقيم و خلع كتفك فلا تحمل نفسك و لا من عداك و لا طاقة لك أن ترد على من عاداك!

لذا آن لك أخيرا أن تنفك عن لعنة كربك المشؤوم يا جلاء، ما كنتُ بقاتِلِ والدينا و لا أنت على غيابك بِمُلام، إنما طابقت مشيئتهما مشيئة القدرِ في نهج سير الأكوان، فكان ما كان، و كنت ما كنت، و ها أنت الآن...

فلتظفر بحياةِ مجدٍ وسعادة، آن لك أن تحضن دينك على سبيله وكمال قوامته يا صغيري يا جلاء. قد كان لي ابن مسكويه أبا حافظا رعاني و تولى شأني تولي المطرِ الكريم شأنَ زهرةِ تائهةٍ بين سفوح الجبال، و آن لك أن تعيش محفوظا سعيدا توابا نقيا ناسيا ما كنت ملاقيه من سوادِ المآل.

لك رغد ولك رانيا، وإن الأخذ بمثابة العطاء، وإن العطاء لسخيٌّ كريمٌ، تملأ فجوةَ الفقدانِ فيه حلاوةُ الخيرِ وأجرُ الحبيب الجواد الكريم. فكن لهما ما لم أكنه لك، سندا عتيا، نورا وفيا، وتدا ثابتا لا يسقط ما نُصبَ عليه من خيام.

لا يشغلنك هم بعدَ الآن، كن لهما ما أنتَ عليه، بل ما كنت عليه، هَبهما الحب الذي تجده في حلاوةِ الإيمان، كن لهما ما أنعم عليك به جلال الإله، كن لهما ما وسعك به من الود و الرحمة و الرضى، كن لهما جلاءً يا جلاء...

قد غمر الدَّمعُ عينيه من جديد، هما مُقلتان فارق الدمع مَبصريهما مفارقة المطر لمواضع القحط ومواضعِ الجفاف. لا تؤتى العبرات لشقي، وذاك ما كان عليه من حالٍ لسنين، سنين لثقل وزنها ووطأة

عُسرها على نفس جلاء ما كانت لتبدو مجرد أعوام معدودات. آن له أخيرا أن يفرج عن إنسانية، هي نتيجة مرتقبة لكاره حاقدٍ متربِّصٍ انتقام، انقلَب محبا عاشقا حزينا في زمن أخشى كونه لا يضاهي الفاصل بين الليلة وضحاها...

مظهره الجاد، بل وهوية انتسابه العربية، كانت دوما ما تطبعه بشيء من سِمةِ التفرد والرجولة والوقار، إلا أن الطفرة الحاصلة بالشكل الذي طرأت به على نظراته الحادة، قد كانت دليلا مطلقا على ارتباطٍ ذي طابعٍ عريقٍ قديم. هذا الكم الحاصل من التغيير بين لحظة وما تلاها، كانَ شيئا من تجسيد الحب، من تجسيد الثقة، من تجسيد التعلق والتطلع، أو لعل الكلمة الوحيدة القادرةَ على استيفاء عواطفه الجياشةِ حقها هي مفهوم الأخوة، قد كانت تجسيدا لتأبين وعزاء أخٍ مدفون بعد أن عاش ما لا يعدو دقيقتين اثنتين...

تقرحت عيناه لوقت طويل وحاوطت الحمرة جفنيه من كل صوب واتجاه، ارتعدت فرائسه ودق قلبه إلى أن كادَ يستمِعُ إلى صخبه وصراخه العالم كله. ربما كانت حالُه نوعا من السخط على مجرى القدر، قد كان تهديدا صريحا بأن تذهب تضحية ضياء

سدى، أن تهب الأيام الخوالي التي أمضاها مختوما متتلمذا مهب الرياح، والأسوأ من ذلك أن ما نزفه والداه من دماء فداه، لن تكون إلا مَضيعة القَرْنِ ولا يكون بذلك على دهرِ الوجود عصي بِعتِيّه سواه...

بينما تلخبطت أحاسيسه جليا و اختلطت مشاعره، اقتربت رغد رويدا في خطوة مواساة :

رغد : لستَ ملاما، قد كان قدرا مكتوبا يا جلاء، قد تعلمت ذلك منك أتذكر ؟ رجاء لا تجعل ما خضناه سدى، ألا يُفترَضُ أن نجاتَنا من حَبسِ الغرفةِ قد كان تجليا صريحا لثقتك المفرطة برب العباد، ثقتك بإلهنا الأوحدِ الواحد، بمعبودي ومعبودك...

جلاء (بينما عبراته تأبى مفارقة خديه و عيناه مطأطأتا الجفنين) : قد كان قدوتي يا رغد، قد كان أحب لي من نفسي، قد كان شخصا بقدر ما مقتته، بقدر ما كان بداخلي ما يقول أنه ما كان و لن يكون أهلا لسوء، أنه يفترض أن يكون في ما رأيته لبسٌ ما و قد كان. ما كانَ ينبغي أن تكون تلك نهاية ضياء يا رغد، ليس بعدَ أن ضحى بكل عمره متواريا عن أنظاري، ليس بعد أن ألممت بالحقيقة كلها

يا رغد، إنه راعي أمري ووليه، هو لامُّ شتاتي، هو الكتف الذي رجوت توسده لسنوات...

في مشهد سديمي، يظهرُ فتى يرتدي ثوبا من ضباب، يتقدم بكل ثقة و إقدام، و على رغم ما أعمى الرؤية بما تضمنه البرج العالي من سحاب، كانت ابتسامة الفتى القادم نورا خافتا واضحا كنجم ساطع في كبد السماء؛

ضياء : من قال أي شيء عن بقائك وحيدا تعيسا بلا كتفٍ تتوسده يا جلاء، أخانتني مسامعي أم أنني المقصود بالكتف الذي رجوت توسده لسنوات أيها الصغير البكاء !

لم تسع المفاجأة قلب جلاء، وعلى حنقه و ضيقه مما طاله من خوف و حزن و هلع، ما كان من إملاء عقله إلا أن يعانقه بأحر ما أوتيه من جهده باكيا صارخا، كليا و قطعا على حلة طفل بكاء و صبي صغير مرتعب...

ضياء : لا شك بعدَ الآن كونُك غدوت رجلا يا هذا، يا له من عناق، قد بلغ مني الجهد يا بني، أهذا ترحيب حار أم انتقام !!!

انفجر جلاء و رغد ضاحكين بكل ما أوتياه من قوة، و لمرتهما الأولى، و على عكس نهج فضولهما، قد شعرا أنهما ما كانا بَعدُ بحاجةٍ للسؤال، هي لحظةُ نعمةٍ سماوية استجيب فيها لنحيب جلاء، و ضياء على مرأى منهما حي يرزق، فما عسى بعدَ ذلك يهم أساسا ؟...

ضياء : أعلم أن في سبيلنا حياةً سعيدةً برفقة أميرتنا الصغيرة رانيا في الانتظار، و أوقن تماما أنكم في غنى مطلق عن طرح أي سؤال. لكن قد تبقى في سبيلنا حاجز أخير، أرى إماطته أسلم خيارٍ أقرب ما يكونه إلى ضمانِ سعادةٍ خالدة، و إبقاء أرواح أكانت مهتديةً أم تائهة!

رغد : طوع أمرك يا ضياء (حدثت بقبولها بينما أومأ جلاء بالقبول مشغولا بإيقافِ غزارة دمعِ عينيه و ما آل له من عبرات(...

ضياء : عل الأمر يبدو جنونيا، لكن أأنتم على ألفة بأسماء المقدمة و الإنجيل الخامس و حكم كونفوشيوس و حي بن يقظان و تهذيب الأخلاق؟

جلاء : مما لا شك فيه ! ما عساه يدفعك لسؤال بهذا القدر من العفوية؟

ضياء : كان من أقدارِ حظي المسنون، أن يحررني الكتابُ و باقي المناظرين تلقائيا بعد عودتك يا جلاء، و ما كنتُ إلا مختبرا لصحة النظرية، فلولا عودة المناظرين أيضا لمحي من ذاكراتنا جميعا أي لمحةٍ من تاريخ من ذكرتهم من خلالِ مؤلفاتهم التاريخية من كُتَّاب! حقيقةُ كوننا نذكرهم جميعا، ما تعني إلا حُظيهم بعودة ميمونة مرجوةٍ، فحمدا وشكرا لله!

جلاء : أخشى أني أرى غموضا لا أفهم مغزاه، أليس التنقل بين الأبعادِ غرضا من أغراض مفتاحِ الدماء. فلم أره إلا قبل دقائق معدودات، و ها هو على حاله مُتخنٌ محقونٌ بالدماء! فكيف عساكم قد عدتم بأي سبيل سواه؟

ضياء : تجلى بآخر المطاف أن مفتاح الدماء قد كان بمثابة خِزانَةٍ للأرواح، و بقدر الحدِّ الذي يبلغه من الإشباع الذاتي، يكون قادرا على نقل أي كانَ بينَ أية أبعاد. و أخشى من ذلك ما أخشاه أن الفضل في ذلك عائدٌ لوالدينا يا جلاء!

جلاء : و كيف يكون ذلك، أما ضحيا بدمائهما فعلا في سبيل أهليتنا لولوج الكتاب !

ضياء : قد بدا بآخر المطاف أن صفة و شكل الدماء لم يكونا إلا صفةً منتحلة لإيقاعِ الارتياب بأنفسِ زائري الكتاب. فأما عن حقيقته وجوهر كيانه، فهو كما أسلفت بالقول بمثابة خزانة للأرواح، إلا أن قوته تكمن في أن له التحكم الكامل فيها والسلطة الكاملة عليها، و بموجب ذلك، قد وضعنا بالفعل أرواحنا على المحك للحصول على بضعةِ إجابات ـ الأمرُ الذي لست نادما عليه مطلقا ـ. لذا فالمفتاح يتغذى فعليا على الأرواح، وبصفتي حامل المفتاح الأخير وراعي الكتاب، فلا بد أني نِلت ما يكفي من عقاب حينما كانَ نقاش الوجودية على وجه أوجِه. والبادي أن نيتشه قد أدى الثمن أيضا، بالأخير ستنتهي أسطورته أو ستبتدئ بالأحرى بموته بأواخرِ خمسينيات عمره، ولو أنني أكره خاتمةً على هذا القدر من الفظاعة لرجلٍ بقدرِ حكمته، وأعتقد أني مواجِهٌ لنفسِ المصير، لكن على أي حال.

عودة إلى موضوعنا، أعتقد أن والدينا قد ضحيا بأرواحهما نفسها

فداء مفتاح الدماء ليتمكنا من ضمان حُضِيِّنا بهذا القدرِ المعدود من الأيام. قد استرقا النظرَ لمستقبلنا برؤية نجهلها لحد الساعة، وقد آن لنا أن نرد الجميل، قد حفظا لنا قدر التحريرِ من قيود الجهل والمراء، وقد آن لهما أن يحظيا بنوع من التحرير، و لو كان تحريرَ وداع!

رغد : أينبغي أن يعني ذلك أن خلاص روحيهما و فك قيدهما لا زال أمرا بالإمكان !

ضياء : لا يسعني الانبهار بذكائك كما هو الحال دوما !! يا لك من محظوظ يا جلاء (قال ضياء بنبرة ساخرة تحمل ما تحمله من معاني الاغتباط و عواطف السعادة و السرور(

جلاء : أخشى أن ذلك يعني تدميرَ مفتاح الدماء، أأنا على صواب ؟

ضياء : دوما كنتَ كذلك يا جلاء ! لكن مصطلح التدمير لا يتناسَبُ ومبتغانا، و ليس له حتى بمثابةِ حجرِ أساس. حينما نتحدث عن تدميرِ الحاوية، فينبغي التفطن إلى إمكانيةِ تدمير المحتوى، وهذا ما لن نحمَد عقباه! لذا يفترض بنا أن نكون أكثر حذرا في معاملة

المفتاح...

جلاء : لكننا لسنا على دراية بالتكوين الروحي و شكله و إيهابه، بل و حتى هيئةِ تجسيده ! فكيف لنا الجزم بنتيجة لا نعلم صحة السبب بها من خطئه!

ضياء : تماما، قد أوتيتَ جوابك من لدنك يا جلاء. لسنا على علم بالهيئة الكونية للروح، لذا فالمجازفة بخطرٍ يعلو احتمالُه عن استبعادِه، لا محالةَ إقبالٌ غير مسؤول! لكن الحلَّ بين كفي لو تبادرَ إلى ذهنك السؤال عن مساره ومحتواه...

رغد : و ما عساه يكون، أليسَ من الخطر التخلص من مفتاح الدماء، فما عساهُ قد يظل حلا كائنا بالحسبان !

ضياء : إني على صداقة عريقةٍ بصفحات الكتاب، و قد وهبت شرف رعايته لعدد لا يحصى من التكرارات ! و أعلم أنك عاجزٌ من قراءةِ مكنون صفحاته، لذا يفترض أنك عاجز عن فهم مكنون الجوهرِ الحقيقي له، و في هذا يكمن الحل الذي نصبو إليه و الخلاص الذي نبتغيه!

جلاء : لا أنكر أني عاجزٌ عن قراءة أي سطرٍ مما توسط صفحاتِ الكتاب، و أفهم أن الأمرَ على ارتباطٍ وثيقٍ بمفهوم رعايته، فما عساه ضاما بين دفتيه ؟ مهما حاولت التنبؤ بمكنونه عجزت عن استباق العلم بما يحتويه...

ضياء : ذاك أنه لا يحتوي علما و لا معرفة، سطورا و لا كلمات و لا حتى حروفا يا جلاء ! قد أسميته بداية بالكتاب السحري، في حين أن غايته تقبع بالتغذي على طاقة الحياة، ذاك بما تحتويه من إرادة و نزوات و رغبات و اندفاعات، و ذاك نفسُهُ ما حدد أهليتكم لخوضِ محنته! و لكونه على هذا القدر من الإلمام المعرفي بما تحتويه أنفسنا من التساؤلات و الظنون، فقد استجابَ في مرحلةٍ من المراحلِ لتساؤلاتي الداخلية حولَ حكايته الخاصة! ذاك ما وهبني أخيرا عطفَ الإلمامِ بِقصته، بِقصة كتاب يريك ما تريد أن تراه لا ما يريدك أن تراه...

ابتدأت قصة الكتاب مع سقراط، لا يخفى كونُهُ مُحبا للاستنباط كارها للتدريسِ والتلقين، ماقتا للمَحْورةِ والتعليم. وظلت حياته على ما ظلت عليه من توالي الأيامِ إلى أن تم إعدامه. ومن أواخر

كلماته، رجاؤه من أفلاطون أن يَنقُلَ عنه فلسفتَهُ ما دامت غيرَ مسطورةٍ على كتابٍ منظور، فكان ذلك بمثابة التحدي لتلميذه، فإما أن يكون واسعا لقدرته كافيا لطلبه، و إما أن يكون مستحقرا مستضعفا من لدُنِ نفسه لما رجته من أهلية التتلمذ على يد الحكيم الأكبر لليونان، على يد شاطرِ تاريخ الفلسفة شقين بتاريخٍ تجزأ عند مواعيد ميلادِهِ و وفاته...

يتكفل أفلاطون بعد اثني عشرة سنة ببناء أكاديميته الخاصة، ويتتلمذ على يده فيها من طالبي الفلسفة و البلاغة العددُ الكثير، و من بين صفوفهم، العبقري الصغير "أرسطو طاليس"، فأمضى تحت رعايته قرابة العشرين سنة، فيها جمع بين عقله العلمي الطبي المحض بما احتواه من علم التشريح و غيره، و بين خلده الفلسفي البلاغي الذي ناله بفضل تدريب أفلاطون و تلقينِه...

وما هي إلا سنوات سابق بعضها بعضا بين تأليفِ هاته المحاورة و استرجاعِ تلك، حتى آن الأوان لتوافي المنية أفلاطون. في صدد باقي سنين حياته، و خلال تعلمه و تعليمه، كان دوما حريصا على استيفاء وصية سقراط، إلى أن تقاطعت سبله و سبلُ أرسطو، فكان

لهما الفضل في إنشاء الكتابِ السحري لتسخير طاقة الحياة، فتلقى ما كفيه من ترانيم علم الزمان و معرفة المكان حتى شمل مفهوم الزمكان في شموليته و مقدارِ إيهامِه.

رجوعا إلى العقل المثالي المحض لأفلاطون وارتباطه بفكرة عالم المثل، كان أمرا محسوما أن له استطاعةَ بلوغِ سحر الأرواح وإنزال غموض مفهومها من أوتارِ السماء إلى مفاتيح البَيان، وبها تقرر أنه ما ضل بين دفتي الكتاب إلا مَعلمُ استدعاء الأرواح بما يتضمنه من أبعادَ مستضيفة لهم، فكان ذلك على كاهِلِ أرسطو، وكان مما أنعم عليه من العبقرية والحذق والذكاء، أن فهم سير مقطوعة الزمكان، فكانَ مفتاحُ الدماء..

تنتهي أسطورة كتاب الحياة بعدما شيء أن يكون تجميعه تحت أمرِ أرسطو طاليس، وكذا على شكلِ إرادته وتوقعه. وكان مما لَزُمَ عليه من الآثار النهائية لتدشين قطعته العدنية الفلسفية الخالدة، أن يُضَمِّن مفتاحَ الدماءِ قبسا من روحِ أفلاطون وسقراط، على نهج المألوف من تعاويذ التدبير وترانيم سيرورة التسيير. في سبيل إحداثِ المخطط و فِداه، و بعد تضحية أفلاطونَ بحياته ليلة وفاتِهِ

سعادةً و اغتباطا بِتحقُّقِ رغبة سقراط في نجاحِ مشروعِ الكتاب، كان على أرسطو تزييف امتعاضه و غضبه من توريث أفلاطون خلافَةَ الأكاديمية لأحدٍ سِواه، فيتحرر بذلك من موطئ أثينا و يغادره لمحلٍّ يكون به أكثرَ قابليةً و حريةً لإعلان الانطلاقة الفعلية للكتاب، لبناء أكاديميةٍ مستحدثة على نهج أفلاطون لتستهدف تكوينَ زائرينَ جُدُدَ لبوابة مفتاحِ الدماء و الخضوع للمحنَةِ الأولى، محنةُ ختمِ الخلود بين دفتي كتاب أو الإبقاء على أمدٍ لروحٍ بواقعٍ فعليٍ لا يتوقف صبيبُ زمنه أبد دهر الباقي المعني من الحياة ...

آلَ الكتابُ عاقِبة أمره إلى موضعِ تشويه للزمكان، فيه وبه تختلط الأزمنة مقبلةً من كل حدب وصوبٍ ومكان، عدا أن المقبلينَ عليها إما أنهم فلاسِفة بالفطرةِ قد حلّوا بالكتابِ محلَّ الحكام، و إما أنهم زائرون أقبلوا لخوض محنَةِ مواجهة معارف العِظامِ من كبار الأعلام... ظل على حاله مستضيفا و رافضا عاما بعد عام، لا يعدو بُعدَ الأرضِ فيه إلا قليل، و لا ينجو من بطشِ بعد الغرفةِ قدرٌ كثير...

جلاء : من كانَ ليرى أبدا أن للتاريخ أمثالَ ما سردتهُ من سطور

! لا ريب أن علينا استيفاء كل طقوسِ الحمدِ والشكر والامتنان ما دمنا قد غادرنا لعنة الدفتين بما احتوتاه من رحمةٍ، محفوظي الأنفسِ محصني الأرواح!

ضياء : لا شك أن ذلك من رحمةٍ إلهيةٍ مقدورة، و نرجو الفرارَ بجلدنا لأكثرَ من ذاك...

رغد : أوترانا تحتَ ظرفِ خطرٍ بأي وجه كان !

ضياء : بل تحت تهديد حربٍ كاملة الأركانِ بما تحتمله من فظاعة المعنى و فوحانِ رائحة الدماء. لسنا على استعدادٍ إطلاقا لمجابهةِ كارثةِ حرب الفجوة أو معركةِ الدفتين من جديد !

جلاء : أكانت هنالك حروبٌ من قبلُ بهذا النوعِ من الأسماء ؟

ضياء : ليس على حد علمك، أو ليس في كتب تاريخك على الأقل يا جلاء!

رغد : ما تكون هاتان المعركتان !

ضياء : هما حفرةٌ في مَعلم الزمان، هما القرنُ الفارِغ الذي ما حفظته إلا آثار المكان بما احتواهُ من أهرام...

رغد : أللأهرام علاقة بحربٍ بهاته الجدية !

ضياء : بل هي شواهِدُ الحربِ ذاتُها، إلا أنني لست بحاكي ضائقة ماضيها الآن. علنا نحظى ببعض المتعة لنحدث رانيا في حكاية غامضةٍ تحتوي ما لا تعلمان!

جلاء: لك ذلك يا ضياء، فمذا الآن!

ضياء : إحراق الكتاب...

جلاء : أليس من المفترض أنك قد خاطبتني بمحاضرةٍ كاملةٍ حول حفظ الحاوية لحفظ المحتوى ! فما عساه يكون هذا الآن؟

ضياء : مفتاح الدماء جزء من الكتاب ، في حين أن أرواح والدينا ليست كذلك يا جلاء. لذا يفترض أن يتحررا لمجرَّدِ إحراقِ الكتاب!

جلاء : و كيف نعلم بنجاحنا و بلوغنا مبتغى التحرير يا ضياء بعدَ مجازفة الإحراق !

ضياء : لن نعلم أبدا، أو عل رحمة الأقدارِ تقودنا لاستشعارِ ذلك. إلا أنه ما كان للأرواح دخلٌ يوما بقِصَرِ نظرِ الإنسان، فلا

يفترض بي ولا بك ولا برغد ولا حتى بأرسطو مستدعي الأرواح وباني الكتاب أن يكون لنا سجِلٌّ سابِقٌ بالاطلاع على مكنونِ و ماهية الأرواح!

جلاء : يقضي الله أمرا كان مفعولا، هَلُمَّ بنا لمستقبلٍ مشرق يعيش به أربعَتُنا يا ضياء !

مرت الأيام، أيامٌ مرت بين آلاء زمن واقع وخيبات فشلٍ ذريع. بقدر الدفئ الذي ناله جلاء تحت لطفِ عائلته المكتملة الجديدة، بقدر التبرم الذي عاناه لفشله في إحراق الكتاب. استمرت مشاعره بالتخبط بين تبرم وسرور، تارة تُستلطفُ ابتسامته وتارة يكونُ محلَّ مواساة. و بين هذا و ذاك تعاقبت شهورُ معدودات تزوج بدايتها و رغد عن حبٍّ طالت لوعته و خلد أسره طيلة أسرِ الكتاب، كانت لباسا له و كان لباسا لها، عسى أن يكونَ له من الذرية ما يفوقُ بني آدمَ ذكاء فيحملوا عبقريته و عبقرية عمهم ضياء، و أن يكون له من الأبناء ما يَسَع قلوبَ البشر جميعا بحمل عواطفِ رغد و شعلة قلبها المتقد بصفات الحسن و اللطف و الجمال...

وعلى ما عرفه الثلاثي المهاجر من ضعفِ الحيلة في قدرة إحراق

كتابٍ يعجُّ بطاقة الحياة، ابتغت أنامل رانيا سبيلها صوب قلمٍ تخطط به رغبتها على صفحات الكتاب بصفته معاديا للفناء، فقالتٍ بسيل وفير من عاطفة المداد:

قد آن لي أخيرا أداعب شعر أخي ضياء، قد كان لي الحظ الوفير لأن أرى ثانية ابتسامة منبعها الفؤاد لا العقل والمراعاة على محيي أخي جلاء، كان لي الحظ الوافرُ أخيرا أن أستمع منهم ما قد حاكت بهم خيوط الزمن و ما قيس على عقولهم من خيوط العلم و بما اكتسته المعرفة و الفضيلة من رداء. فكيف تكون تضحيتهم سدى ليعجزوا عن آخر قطعة بلغز الحياة، لغز السعادة على إثرِ البقاء...

عساك السحرُ متجسدا في كتاب، أو لعلك مفعم بطاقة الحياة، ربما أيضا أنك عاجزٌ عن الفناء، إلا أنك ضممت من العقول والأعلام ما جعل لكيانك عقلا مستقلا و ربما قلبا خالصا، أفلا تعدو بما أنت عليه الآن كونَك مجرد كتاب... ما عادت حاجتك لوالدينا في شيء، أو لعلك أيضا حبيسُ مفتاحِ الدماء، حرر والدينا ولك سعادة البقاء والإبقاء، إبقاء كيانك رغما عن مفتاح الدماء، فلو كان حاوية لطاقة الأرواح، فقد احتويت الأرواح بعقولها

وكمالها على حدٍّ سواء...

كأنها سيدة الكتاب، أو كأنها أميرته الجابلة له على الخضوعِ والطاعة، ما مرت بها ثوانٍ عن ما سطرته على الصفحةِ السحريةِ للكتاب، إلا و كأنه طوعَ إرادتها و لِما سنَّتهُ عليه فرضا و رجاءً قد استجاب. وما هي إلا لحظات، إلا و قد أتاها الردُّ عن سطورِها المُختَلقة بتسرب مداد، بسطورٍ كان طابَعُها الحِداد:

من منشئ الكتابِ الأول ومن راعيه الأبدي، تأبيني و رثائي لما حل بوالديك، و ما كان ذلك أبدا أمرا واقعا على مَعلَمِ الحسبان. إنما أغفلت أن للإنسان قدرة الاختيار، فكان لوالديك ما اختاراه من مغادرة أحضان الحياة ليهباكم أحَرَّ قبلاتها، أغفلت أن للإنسان إرادة وأن والِجَ غرفةِ الكتاب محاسب بإرادته مجازا عليها لاحقٌ إياها، فما اعتقدت بزائر راجي علم أن يكون مبلغ رغبته الفناء. فما كان أمرا متوقعا أن للإنسان أمثال ما رأيته من غرابة الرغبات على مر مئات السنين... و لو كان في قولي عزاء، فعلى ما مر بي من أعوام، كان أمرا يسيرا نسيان أي زائر كان مختوما أو مجرد مارٍّ بالكتاب، إلا أن والديكما قد خلقا من طينة أخرى و من تراب

مغاير، كأنما ماؤهما العلم و طينُهُما الزهد في الحياة، قد بلغا معا أعلى المبالغ و ارتأيا أن يكون لكم حظ مما وسعَهُ علم الكتاب، فأراقت الغرفة الحمراءُ دماءهما فداه، تلك رغبتهما و يسعدني أنها بلغت حد الاستيفاء... و لا يحزنك أمرهم، فما عادوا بَعدُ أسيري الكتاب و لا مسجوني مفتاح الدماء، قد حررتهم أمانيك و تلكُ ثمرة ما أبرعَ به إخوانك لحدِّ مبلغ بُعدِ السماء...

قد باتَ معلوما أن لعنة حياتكم قد اختزلت في صفحاتِ كتاب، فهبوه لقدره و دعوهُ لموجِ الهدوء و نسمات الرياح، أطلقوا عنانه لمجابهةِ الحياةِ وهبوه رحمةَ الوداع، عساكم تسعدونَ بعدَ الشقاء، و عسى أن تستمر رحلة الكتاب على صفحاتِ الوداع...

"من الروح المُتناسَخة إلى أسرة خلود الفناء، من سقراط و أفلاطون و أرسطو، إلى لقاءٍ مقدورٍ علكم فيه بمنزلة الحكام..."

أدرك جلاء أن نهرَ الوداعِ كان المقصودَ بموج الهدوء ونسمات الرياح وصفحات الوداع، هو النهر الأوحدُ بمدينة القمر الذي تَميز عن غيرِهِ بنمطِ هدوئه الخاص، هي مدينة يعلو موقعها عن مجاراة سنن الفضاء و قوانين المكان، و بقدر ما وسِعها من المنطق، بقدرِ

ما تخلو منه و تختلف عنه في كثيرٍ من الأحوال، قد تفردت بنوعها عن غيرها من الأمصار و امتازت عما يعدوها من الأسفار. والآن باتَ لسببِ بادٍ معلوما ما يكونُ عليه معنى مُواقعتهم لإحداثية الاختلاف الكوني عن المألوفِ العام...

تبرحُ رحلةُ الكتاب رفقة عائلةِ ضياء أوجَ الختام، و تنتهي سُبُلها على نهرِ الوداع، و ينتهي مع رحيله ما صاحبه من مخاوف و توقعات و أحلام. كل ما صاحبه من تردد ومعاناة، قد ضمه جلاء في قوة ذراع واحدة، رمت بها والكِتابَ بمعية مفتاحِ الدماء. ليبلغ الإخوة الثلاثة ورغد ختام المآل، مآلا يكونون فيه تَحت أمرِ الله أسيادَ أنفسهم و أصحابَ قرارهم الخاص، فيعودوا على غير ما كانوا عليه من الرعب والهلع، ساكنين مطمئنين مسرورين، راغبين طامحينَ لمستقبلٍ مجهول، مستقبل حيث لا أرض و لا غرفة و لا سماء بمعاني محتويات الكتاب، مستقبلٌ حيث لا يقبع إلا سيرُ صبيب الزمن بدلالة الأفعال تحت وطأة تأثير المكان، مستقبل تعلو فيه معاني الأنا، خصبٌ يُزهر فيه تهذيب الأخلاق و المقدمة و الإنجيل الخامس و حي بن يقظان، مستقبل تُعتبرُ به حكم كونفوشيوس من

جديد...

إلى هنا تنتهي قصة كتابِ الحياةِ ومفتاح الدماء، قصةُ دفتين ولجهما مسلم على عتبةِ التشكيك فعاد محسنا على بابِ الجِنان، قصَّةُ فكرٍ صريحٍ أثبت النقلَ الصحيح، هو ولو أخذ قد أعطى، ولو كانَ نقمة قد كان بذات المصيرِ نعمةً من آلاء الزمان، زمانا يزكي الأنفس لطيب الحسبان، زمانا يسوق الحياة على أرض معنى الإنسان، زمانا لا يقود إلا لمصاحبة النبي العدنان، تحت قِنِّ فلسفة سيئت بها الظنون، فكانت بآخر أمرها، أقوم السبُلِ وآخرها لبدخ الأنام على رفاهية الأمان...

النهاية ـ ١٧ شتنبر ٢٠٢٣

ختام

إن الإنسان في غيابات نفسه عالم بكافة أسرار الوجود، مُلِمٌّ بموضوعاته محْتَوٍ لسائر مقولاته. لا يخفى عنه منه شيء إلا بهاجس إرادة زهدٍ في الحياة، أو بضمير متناسٍ، يهوى بعث نفسِهِ على صورةٍ غير التي يُجبره عليها معنى الإنسان. إن "المعرفة تذكر و الجهل نسيان" و إن "الدين عند الله الإسلام". قد خُلق الإنسان ذا عتادٍ في معركةٍ لا يبلغ قوتهُ فيها أحد سواه، سلاحُه منذ وطأ الأرض التكريم، وذخيرته التعالي بعقل فعال وذهن دامغ يتعالى به عمن عداه.

ما على المرء على تشعب قراراته واختلاف رؤاه ومواضيع منظوراته، إلا أن يعود لتقليب أوتار نسيج قلبه و كيانه. قد يرجو الحق خارجه والحق فيه، ولا الحق في كماله إلا وجود الإنسان تحت إرادة الإله وحده دون سواه.

علَّ أفئدتنا بحاجة لآذان، آذانا تصغي لأصداء المطلق وما

يشذيه الكون من ألحان. ويا ليتها استمعت لما بها وشاءت ما كان أصلا فيها، فتغدو على نقصها كامِلة الفهم والإدراك.

ما عساي أقول، لا شك أنها كانت رحلة طويلة. كلماتٌ رصصتَها جندا في ذهنك النهم عزيزي القارئ، لا أنت كللت ولا مللت، حتى صاحبتَ جلاء واكتسيت رداه في سائر نِحَلِه وأحواله. كلي يقين أن شخصَهُ يبعث في نفسك ما يبعثه في فؤادي من واقعية الوجود. عله كشخصية قد كان وليد نسج خيال عابر، إلا أن فينا جميعا خلية تحيل وجودنا إلى ما يذكرنا أننا جميعا جلاء، وأن الأصل فينا أن نكونه، ونكون على قدره من الإصرار والترقب.

طبيعة الإنسان السؤال، وهديته الفضلى إما جوابٌ شافٍ أو سبيلٌ يرجى إليه. فلا يموت الإنسان حينما تسكُنُ أنفاسه أو حينما يخبو فيه لهيب الحياة، وإنما يموت حينما يطرح آخر سؤال، حينما ترسم أنامله آخر علامة استفهام!

بيولوجيا وسيكولوجيا، يعد الإنسان أنفَرَ المخلوقات من احتواء المعرفة الكونية الكاملة. وأدرك أنه قد يبدو لوهلة أن الهدف الأساس لكل متاعب الإنسان، أن يحظى بأجوبة كافة أسئلته ـ

والأمر كذلك ـ، إلا أنه عاجز عن استقبالها جميعا، فلا بدنه ولا عقله متناهي الجمال قد يحتملان مطمَعَ الكمال. وفي ذلك كافة أمره وسائرُ حاله، ذلك ما يجعل الإنسان إنسانا، إلى أن يستقي من بؤسه سعادته ومن شقائه رغد عيشه.

محاورة تهذيب العمران، لم تكن أبدا فكرة مسبوقة التخطيط، وإنما كنتُ فيها وجلاء نخط سطورها بنفس المداد. وما الأصل فيها ولا المبتغى منها أن تنالَ عزيزي القارئ أيَّ جواب. وإنما كافة رحلتها وما حملته من متاع فكري فلسفي، قد كان لتنشيط عقلك الفعال، لتخوض به رحلتك الخاصة، بأفكارك وإرهاصاتك ومزاياك الخالصة! قراءتك للمحاورة عتبة لعالم آخر، عالمٌ تخلق فيه أشسع الأكوان ولو في ركن غرفتك أو داخل علبة أقلامك، فتكون مهيأً لخوض غمارِ إبحارٍ عسير على بحر هائج، هو إبحار لا يكون آخر مآله إلا السكون. قد حاولت جاهدا أن أحتوي فيها خلاصة فكري وزلال منطقي حتى يوضع بين كفيك عتادٌ إما تتبناه كفكر خالص، أو تجعله مادة مؤسسة لأسلوب عصري يشد الرحالَ لعقدِ فكر جديد...

نسل الحكمة

محاورة تهذيب العمران انبعاث لأجداث لا يمسها ضر ولا يُخالط ثراها غبار، في محاولة لتقليب جثت كانت خالدة أسماءً وفكراً وعلماً. فَعلَّها ستبقى كذلك. على أقل تقدير، إلى أن يكون هنالك من يأتي بجدل هدم العمران وخطاب تشويه الاجتماع البشري!

محاورتنا التي تلاعبها أنامل يديك عزيزي القارئ، ما هي إلا مسرحية تنسلت عن خيال عابر. عن خيال جمع في طاولة ما عجز عنه الزمن في قرونٍ مرت أو كانت له حكمة فيه.

جلاء بطل القصة وهمٌ حي وتجسيد لحيرة عقل أثقلته تجارب التطرف الديني، فشاء الترنح بين نور الإسلام وظلمات ما عداه على أن تتنسل عن خَمرته، بنتُ عقلٍ تفك عنه تبرم حيرته وتنصره على سطوة ضياعه. يشاء الأمر الإلهي أن تكون الأقدار له حليفةً، فينتهي بعد أن كان سقراطي الفكر، سفسطائي الجدل، نيتشوي العدم، وكاموي (ألبرت كامو) العبث؛ تلميذًا ترعاه أيدي الزمان

فتقلبه ببطش كتاب سحري بين أكف الكبار العظام من الفلاسفة، ليكون له أن يهدم حيرته بحيرات غيره ممن جالسوه من المفكرين، فما أسعد المرء ببؤس غيره حين بؤسه، فيُشاطَر فيه انفطارًا ودمعًا!

تحت حكم مداد متواضع وسطور هي أعلم بغلبة توفيقها على توقيفها، نلامس أكف الصلح بين الدين والحكمة؛ على أنها إنجاب متكرر لإبداعٍ ما خُلِقَ أو صنع، بقدر ما اكتُشف أو عُلِم سَبقه بالوجود وأسبقيته في الأيس عن التأويل وخطابة الزندقة ومناهجها فحسب.

نحاول في ما نقدمه ماثلًا أمامكم، ألا نعمل على إبداء الاتفاق الكائن بين العقل والحكمة جليًا، بالقدر الذي ننحو فيه منحى الاستنباط والتوليد من نظركم العقلي كقراء للفلسفة، ومبدعين في أصول أحكامها وأنوار جوهرها. فيكون لنا بِيُسر كان الله وليه والفكر رسوله والوسيط بيننا وبينه، أن نَعطَش لمياه الجُبِّ المالحة ونستقي منها عوض الإدراك العابر علمًا رصينًا، ما إن يُستعبد في قصور (القصر كمحل ترف وبيت بدخ) عقولنا، ويُسجَن في ظُلم جهلنا وقصورِ فهمنا (يقال: فهم فلان قاصر)؛ إلا وهو ملك عليها

وزير فيها وعزيزٌ بها.

ما كان ذلك اغترارًا وإنما إيمانًا، إيمانًا خالصًا بأن مبدع السبب هو نفسه خالق النتيجة، وأنه جل وعلا ما وضع قِنّاً إلا وجعل مُستَهلَّهُ الفكرَ ومآله الوحي والتسليم بما شاءته ذاته العلية من سنن وأحكام.

الفهرس

شهادة أستاذ في حق طالب.....٧

مداعبة فلسفية للرواية.....٩

لائحة المصادر والمراجع.....٢٥

حول دراسة الكتاب.....٢٧

تدبير التفكير بين آصرة التعبد وخواطر المناجاة ٢٩

مذكراتي الأولى ـ خشية و انفصام.....٣٥

٢٠ أكتوبر ٢٠٢٢ ـ في صدفة لقاء.....٣٧

إرادَتان.....٥٣

ضياء ـ عطاءُ الكراهية.....٧١

الفصل الثاني:

البشرية بين توحيد البيولوجيا النفسية وتفكيك القومية

الحكم في المقدسات الصينية ونهضة أنوار الكونفوشيوسية..٨٩

ماضٍ أوعى من غده : في رحمة لقاء.....٩٠

الفصل الثالث :

متاع الإرادة، خلاص مفكر أم فراسة مؤمن

ـ تجسيد الاحتمالات تحت وطأة الحقائق الكونية.....١١٦

الأسانية – إنسانية أنانية، إرادة القوة في تقوية الحلقة أم صقل السلسلة.....١١٧

مراهنة الأخلاقيات الاجتماعية، من صنيع الأقوياء أم من خلق الضعفاء، أم مجرد أعذارٍ واهية.....١٤٠

خلود مرغوبٌ في سائر الأحوال..إسما في جحيم أو روحا في نعيم.....١٦٠

الفصل الأخير :

ترنيمة الإيمان، بين تقوى الأرواح و ضلال الأنام.....١٧٠

ختام : نهاية بداية.....١٧١

ختام..... ١٩٨

نسل الحكمة..... ١٩٩